سيزار باڤيز

سلسلة أعلام الفكر العالمي

سيزار بافيز

تأليف: جورج بيرويه

ترجمة: المحامي حسيب نمر

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير
ت: ٣١٢١٥٦-٣١٩٥٨٦ - برقيا - موكيالي - بيروت
ص. ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الاولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

أوتاد على طريق حياة

« ومات أحدهم . منذ وقت طويل جداً
أحدهم كان يريد لكنه لم يكن يعرف »

يوم السبت الواقع في ٢٦ آب سنة ١٩٥٠ ، طلب سيزار پاڤيز من شقيقته أن تهيّئ له حقيبته الصغيرة . فهو على ما يبدو ، كان عازماً على الذهاب لقضاء فرصة نهاية الأسبوع في الريف كما كانت عادته . ولكنه توجه إلى فندق «روما» الواقع تجاه محطة القطار ، وحجز فيه غرفة حيث وجد في مساء الغد جثةً هامدة على أثر تناوله ست عشرة حبة من الحبوب المنومة .

وقبل ذلك في ١٨ آب ، كتب الكلمات الأخيرة من مذكراته اليومية : « لا كلمات ، حركة وبعدها لن أكتب أبداً » .

وفي ٢٥ آب كتب هذه الأسطر وهي من رسالة إلى صديقه « دايڤيد لاجولو » لم يتسلمها هذا الأخير إلا في اليوم التالي لوقوع المأساة .

« سأقوم برحلتي إلى مملكة الأموات بالعناد نفسه والارادة الصلبة

نفسها التي لدى (اللانجيين)، (Langhey). وفور معرفة الخبر أكثر الصحافيون من التقديرات والتعليقات حول سبب تلك الوفاة أو أسبابها .

فالبعض منهم حمّلوا المسؤولية للحزب الشيوعي الذي كان ﭘاﭬيز عضواً فيه منذ ربيع سنة ١٩٤٥ ، وقالوا انه في خضمّ الهجوم البارد الجرانوفي لم يشعر بالارتياح . فقد كتب الملاحظة التالية في يومياته المدعوة : مهنة الحياة : « ﭖ ليس شيوعياً جيداً » وذلك بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٩٥٠ . وبعد ذلك أي بتاريخ ٢٧ أيار كتب : « لقد خضت معترك المسؤولية السياسية التي تسحقني ، والجواب الوحيد على ذلك : الانتحار » .

أما البعض الآخر فينسبونها إلى حزن حديث ناتج عن الحب جاء يتوّج سلسلة من الفشل العاطفي ، ففي كانون الثاني سنة ١٩٥٠ التقى ﭘاﭬيز « كونستانس ودوريس دويلينغ » : (Et Doris Dowling Constance) وهما شقيقتان جاءتا من أميركا لتجرّبا حظهما في السينما الأوروبية فوقع في هوى «كونستانس»، وبقيت العلاقة بينهما حتى الربيع حين انتهت بشكل مذل وفظ . أخبر صديقه «لاجولو» بالأمر على الشكل الآتي : « لقد هربت في الليل من سريري ... لتذهب إلى سرير رجل آخر : وهو الممثل الذي تعرف .. عادت كونستانس إلى بلادها . وهكذا

بعد الاتحاد السوفياتي تأتي الولايات المتحدة الأميركية : استبداد فكري من جهة واكتساح القلب من جهة أخرى » .

وأخيراً ، فان الذين شاهدوا پاڤيز الشبيه « ببندقية فارغة » عندما جاء في حزيران يتلقى جائزة «ستريغا» (Stréga) يعتقدون أنه ربما يكون الكاتب الذي بقي مدة طويلة غير معروف،لم يستطع بسبب طبعه الانعزالي والشرس أن يتحمل ما أصاب من مجد . كتب بتاريخ ٦ تموز إلى « دوريس دويلينغ » : « ان الملل من تلك الأشياء جميعها متأت من أنها تصل عندما تفقد روعتها ومن أننا كنا قد أصبحنا نعدو وراء آلهة غريبة مختلفة جداً .. » فهل هيئات المحلفين الأدبية في إيطاليا قد اطلقت رصاصة الرحمة ؟

إن تلك الفرضيات الواردة على مسافة قريبة من الحدث ، لا تؤدي إلا إلى تجميع دلائل فظة والتعليق عليها . والحقيقة بكاملها غير موجودة لا في الواحد ولا في الآخر من تلك الافتراضات . وإنما في اختلاطها في الوقائع أقل مما هو في العلاقات التي تقيمها تلك الوقائع لبعضها مع البعض الآخر : إنها في استعداد العصر وفي استعداد مسبق حميم لدى «پاڤيز».إلا أنه مهما كان التفسير الذي يعطى فان ذلك الانتحار قد قطع حياة مليئة بالوعود ولكن تأثيره كان أقل بالنسبة إلى إنهاء مدار نجم من نجوم الأدب.وبفضله اتخذت تلك الحياة معنى ، وكشفت عن مظاهرها الخفية ، كما أن الآثار اكتسبت وحدتها ، وانغمست في بيئتها النهائية .

ذلك الموت قد أبقى مجتمعة معاً صروف الحياة والاختلاف الظاهري للمؤلفات ، كاشفاً تحت التطور ثباتاً . ويوجد بسبب بلوغ القمة تلك ، أو تلك الهاوية تداخل مثالي لدى « بـافيز » بـين مبـررات الحياة ومبررات الكتابة (أو عدم المقـدرة لا على الحياة ولا على الكتابـة) ومزيج نفسانـي من الخلـق والجمالية ، والعنـاد المهنـي ، والاستقامـة العاطفية بحيث أن الرغبة في اعتباره بمثابة حالة مرضية أو بمثابة استاذ في الكتابة تؤدي بنا الى الطريق الخاطئ

إن ذلك الانتحار يؤلف الجامع الذي يوحد الانسان والكاتب ، الخلق والخالق اللذين انبثق وأحدهما من الآخر بشكل متبادل .

« التلة والمدينة »

« لا أكون بحالة حسنة إلا إذا كنت فوق قمة تلة »
(الصيف الجميل)
« ... التسكع في الشوارع المنعزلة ... » قصيدة إلى « ماريو ستوراني » ١٣ كانون الثاني ١٩٢٦

ولد سيزار پاڤيز في ٩ أيلول سنة ١٩٠٨، في مزرعة من مزارع سان سيباستيانو، وهي قرية صغيرة مجاورة لقرية « سانتو ستيفانـو بيللو » (Santo Stefano Bello) وواقعه في تلك المنطقة المملوءة بالتلال بين «تورينو» و « جنوى » والممتدة تقريبا من «استي» (Asti) إلى كوينـو (Cuneo) والتي يسمونها اللانج (Les Langhe) . وهذا ما دفعه في بعض الأحيان إلى الرغبة في أن يظهر فلاحاً بسبب الدم - والده كان في الواقع من تلك القرية - كما وبسبب التصرفات، ولكن على الأرجح بسبب الخجل أكثر مما بسبب تأثير الوراثة . لأن أسرة «پاڤيز» كانت قد استقرت في «تورينو» وكانت تمضي فقط فصل الصيف في ذلك المنزل القروي .

لم يكن سيزار الصغير في الواقع يستطيع أن يرى «اللانجيين» إلا بنظرة الدهشة . ومن زاوية الغرابة « كنت آتي اليها كما إلى عيد » كتب في احدى قصصه . وكان يشترك كابن مدينة في الأعمال الـزراعية . وينظر ببراءة إلى المشاهد الناتجة عن تصرف البشر أو الحيوانات في أوقات الراحة أو الطعام أو الجماع . فكان يفاجىء طيفاً أو موقفاً ، وكان يثمل من التذوق والرائحة . كما كان يصل إلى سمعه بعض الهمسات عن أسرار الفجور والفسق .

« تحت شمس الصيف ، كنا نتحدث عن النساء ونحن ممددون في الحقول ، وبين الألعاب والخلافات ، وكان الآخرون يعرفون أسراراً لا نهاية لها يتهامسون بها ضاحكين في تلك التسليات القدسية »

ذلك الريف لم يكن إذن بالنسبة للولد بيئة يمكن أن تنشئه على غفلة منه،وتقسيه وتمنحه أعصاباً فولاذية ، إنما كانت فقط في جو من العطلة والاستعداد ، مناسبة للاكتشافات ، واغراء بالتنقيب ، وإلى رواية القصص وإلى أن تتسرب إلى داخله الرعشة الأولى من شبق غـير مجرب . إنه مكان كان فيه پاڤيز فريسة لاضطرابات البلوغ ، وربما كان قد أصبح أيضاً فريسة للكتابة ، فهو بين تلك التلال وفي وقت كان قد اخترع لنفسه ميثولوجيا دائمة ، ظن نفسه مأخوذاً بكل حرية في تأملات متعددة . « لقد كان ريفي شيئاً خيالياً وخفيفاً - يقول بطل الرواية

التي لما تتم المسماة « النار الكاملة » التي كتبت بالتعاون مع « بيانكا غاروفي (Bianca Garufi) - وشيئاً حلمت به في المدينة »

لقد كان الريف أيضاً، بالنسبة إلى شاب من أصل قروي نشأ في المدينة، يشكل عبئاً من التقاليد والآراء المسبقة وقساوة في التعليم على الطريقة القديمة والخرافة التي تحوم والسكون ، والشعور بالانزواء . إنما يوجد ما وراء التلة المحصورة تلال أخرى ، ينفذ منها إما إلى السهل في الشمال ، أو إلى البحر في الجنوب ، وإلى أبعد من ذلك أيضاً. من يعرف ؟ ربما تمتد أميركا . كم من المسافرين يصلون «جنوى» أو يغادرونها ! مما يجعل الشعور بالحاجة إلى الهرب يجابه حب التجذر . الأولاد في كتابات كثيرة يرحلون وراء الاكتشافات مقلدين العامل الجوال والفصلي والمتشرد والمهاجر . هنالك يتاح التجدد والنشاط ، والنجاح المادي والاجتماعي هنالك يدخلون إلى المجتمع والتاريخ . أما المدينة المستوية المنظمة المنقبضة، الغاصة كوكر النمل ، المملوءة بالأصوات والأنوار المختنقة ، فتنسي الانسان ثقل الأرض . وقد تغلب لديه الانجذاب نحو المستقبلية على الميل نحو الماضي. كتب «پاڤيز» في احدى رسائله (١٨ آب سنة ١٩٢٧) :« أنا الذي أحب المعامل ، والحياة الناشطة ... »

تورينو على سفح الألب ، تبسط شوارعها ، وتمتد حولها في ضواحيها مصانعها . وهناك نساء ينتظرن في زوايا الساحات على طول ضفتي نهر

«البو» (Pô) مثيرات مرحبات، ولفافات تدخن وترمى كما ادعى «پاڤيز» .
يشربون الخمر ويدغدغون القيثار في الخمارات المشبوهة مع رفقة السوء ، وكل شيء يبدو مسموحاً به . ومكان صور الريف الحيوانية إلى درجة السخافة ، ذلك الريف الذي كان ينظر إليه من طرف خفي الولد ساكن المدينة، حل الآن المنظر المغري لمدينة تشبه الماخور. كل ما كان يستطيع الحدث أن يوجس منه خيفة (أو يخشاه أو يدركه مسبقاً) في الكروم وفي غياض القصب قد أصبح في متناول يده . المراهق لم يكف عن التجول والنظر بعين الحسد والاحتساء والاختباء خلسة : « هنالك ليالٍ كنت فيها أتأسف على الذهاب إلى النوم لأن ذلك كان يبدو لي وقتاً ضائعاً . كنت أحب أن أبقى أبداً ساهراً ، مستعداً للتنشق وللنظر ، للنظر ، للنظر بشكل دائم : إن ذلك سيكفيني . كانت لذة بالنسبة لي أن أصاب بجنون الخروج من المنزل والنظر إلى الزمان ، والناس السائرين وتنشق الروائح » . وكان الولد يتردد إلى بيوت الدعارة . وجميع ذلك أدى إلى اتمام تخرجه . ولكن مع وجود ذلك العدد من مظاهر التردد والانكفاء فان الشارع وقد سبق له أن عيش بشعور من عدم الاطمئنان المجرّب، إن الشارع كان يدفع إلى الريف والمدينة تدفع إلى التلال . وقد قال «پاڤيز» عن أول مجموعة شعرية له : « العمل بتعب » انه « شبيه بمغامرة المراهق ، الذي يدفعه الاعجاب بريفه إلى التخيل أن المدينة شبيهة به، غير أنه يجد فيها الوحدة ، فيداويها بالجنس والهوى اللذين لا يفيدان إلا في اقتلاع جذوره ورميه بعيداً عن الريف والمدينة

في وحدة أكثر مأساوية تشكل نهاية المراهق » ولكن هل تمت عند «پاڤيز» نهاية المراهقة ؟ لقد بقيت تورينو وسانتو ستيفانو وجهاً لوجه تتبادلان المقاصة باستمرار .

وبعبارات أخرى وفي ميدان الفكر لا في ميدان الجنس يمثل الريف إيقاظ الغريزة وتحريك القوى الغامضة ، والاندفاع نحو الجنس والفساد ، والاثمار المتوقع سلفاً والارث الثقيل وباختصار كل ما يرفع من مستوى المحتوى ، بينما المدينة باتاحتها الكثير وبتصنيفها والحاحها على وجود الارادة والمهارة ، ترفع من مستوى المحتوى (الشكل) ، المحتوى والشكل اللذين لا ينفكان كلاهما عن المشاركة والانفصال . وبتاريخ الثالث من شباط سنة ١٩٤٤ في « مهنة الحياة » كتب : « إن مكان شخصك هو بالتأكيد الشارع التوريني الأريستوقراطي والمتواضع ، الربيعي والصيفي ، الهادىء الكتوم الواسع حيث صنع شعرك . أما المواد فتأتي من أماكن متعددة غير أنها كانت هناك تأخذ شكلها » وبتاريخ ٦ شباط من السنة نفسها : « شجرات السرو ، والبيت على ضلع التلة التي تبدو مظلمة أمام السماء الحمراء ، تشكل مكاناً للهوى الأرضي . الأتنولوجيا (علم السلالات : المعرب) تنثر في تلك الأمكنة المألوفة الدم المراق بلا تعقل وبشكل خرافي ».

بسبب الصدفة أو بسبب علة فاعلة ولد «پاڤيز» واحدى رجليه في المزرعة والأخرى في بناء بورجوازي صغيرة وكانت اللانجيات اللواتي يراهن ، ثم يعود فيراهن طول حياته قد رسمن على افقه انتفاخ أثدائهن . وهنالك شيء آخر مثير

للاهتمام أكثر، هو أن الجغرافيا قد عملت عملها وكانت تلك المنطقة قد زرعت مشهد أحد نماذجها على أبواب تورينو تماماً من الناحية الأخرى من النهر، حيث ترتفع كاتدرائية «سوبيرغا» (Superga) وحيث يمكننا أن نكتشف السفوح والمجاري والقباب في أطراف الشوارع أو فوق السطوح، ومثالا على ذلك هذا المشهد «للبو» في « مهنة الحياة » : « الليل يرخي سدوله، مدلهماً، فتختفي الأبنية، ويبقى ما يشبه الأضلع المظلمة، الكثة من التلال، موحشة مموهة.

وتلك التلال المزروعة بالمطاعم والمراقص ولكن الشديدة الانحدار والباقية بدون زرع، تشكل مكاناً للنزهة واللهو والانفلات ومتنفساً بالنسبة إلى سكان المدينة. كما كانت في الماضي ملجأ للسكان المدنيين عندما كانت تورينو تنسحق في أيام الحرب تحت عبء القنابل. والغزل الذي يبدأ في زاوية أحد المنعطفات ينتهي هناك في ظل الغابات، وان الطاقة المستمدة من الكحول تتبدد فيها، في دورات صاخبة تحت القمر بين تلك الأدغال. والفكر الخاضع للقواعد العائلية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسة، ينفلت ويمارس فجوره بين تلك الأراضي الغامضة وينسى أن التاريخ ومتطلباته موجودة ».

مشهدان أحدهما حضري والآخر بري ينتصبان هكذا جنباً إلى جنب ويتبادلان باستمرار الاغراء بطريقتين للحياة، وانعكاس تفسيرين رمزيين للكون. وبين الاثنين لم يختر «بافيز» أبداً أحدهما بل كان ينتقل

من الواحد للآخر تبعاً لمزاج البلوغ أو الفسادالمتنامي .انه لم يبلغ من التمدن أكثر مما هوى في البدائية . كان يتأرجح بين ذينك المكانين من الواحد إلى الآخر مكابداً فى أحدهمادائماً من الشعور بالنقص مع الدعوة في الوقت نفسه ومكابداً في الآخر من البحبوحة .

وهذا التأرجح ظاهر جداً في مؤلفاته التي كتبها عهد الشباب لدى شخصية العامل الميكانيكي في : « تحية يا مازينو ! » وفي روحية قصائد « العمل بتعب » وعرضها ، وبعد ذلك فان تلك اللعبة من الأشياء المختلفة ، والمطالب المستبدة كأنها مناسبة لخلق تطورات غنية في « الشيطان فوق التلال » و« المنزل فوق التلال » .

المراهقة الثلاثينية

« صحيح تماماً أن الجنس خراب الحياة
من رسالة إلى فرناندا پيڤانو (Pivano
Fernand) ٩ أيار سنة ١٩٤٣

لم يتعرَّف « پاڤيز » إلى أخطر برهة في حياته العاطفية إلا بتاريخ ١٨ آذار سنة ١٩٣٦ .

كان قد أُوقف في السنة السابقة مع الكثيرين من أعضاء الجماعة المعادية للفاشستية المسماة : « عدالة وحرية » : (Giustizia Et LIBERTA) رغم أنه لم يكن منتسباً إلى ذلك التنظيم . وقد حكم بأن يبقى تحت المراقبة لمدة ثلاث سنوات لأنهم وجدوا في حوزته رسائل كانت المرأة التي يحبها تتلقاها من خطيبها السابق : « التييرو سبينيلي » (Altiero SPINELLI) المسجون في روما ، وبعدما أعفي مما تبقى من العقوبة عاد من الأسر ، وكان أحد أصدقائه ينتظره على المحطة فسأله «پاڤيز»: «وهي ..؟ »، أجاب الصديق : « لقد تزوجت البارحة صباحاً » فسقط پاڤيز مغشياً عليه .

لا نعرف كثيراً عن تلك المرأة التي تحمّل من أجلها الأسر ، والتي كافأته بالزواج من شخص آخر. حتى اننا نجهل اسمها الذي بقي سراً حتى اليوم. وإنما نعرف اسم التحبب الذي كانت تنادى به : «تانيا» ، وپاڤيز يسميها : « المرأة ذات الصوت الأجش » إن كثيراً من النساء في مؤلف بعد مؤلف ذوات صوت أجش.

التقاها في سنته الجامعية الثالثة (١٩٢٨-١٩٢٩) وتعاشرا مدة سبع سنوات . لم تكن بتثقفها من الرياضيات وبصفتها مناضلة في الحزب الشيوعي السري تشبه پاڤيز. إنما كانت امرأة قوية ، نشيطة ، حازمة .ظن الشاعر القلق على مستقبله وغير المتأكد منه أنه يستطيع أن يجد فيها الاطمئنان والاندفاع اللذين كانا ينقصانه، وفي الوقت نفسه يمكن أن ميلا خفياً نحو الماسوتشية « حب العذاب » قد دفعه إلى اختيارها . إذ كان من طباعه الثابتة الميل نحو المستحيل ، والعذاب والغصة التي يثيرها الفشل . وقد دفعته المراهقة إلى أن يرفع عينيه نحو المرأة التي تفرض نفسها « بابلية كانت أو اسكندرية » والتي تعرض نفسها عليه سواء كانت راقصة أو ممثلة ، ولم يشف اطلاقاً من تلك العادة . في سنة ١٩٤٨ كتب الملاحظة التالية : « حلم قديم : أن أكون في البرية مع امرأة جميلة : « غرير كارسون » أو « لانا تيريز ». وكانت « كونستانس دويلينغ » ـ ولو أنها لم تكن نجمة - على الأقل اسطورية من ناحيتين باعتبارها ممثلة واميركية ».

أما ما حدث بالتأكيد في آذار سنة ١٩٣٦ فهو أن «پاڤيز» اكتشف

عدم انسجام بين عالمه وعالم تلك المرأة وعدم صلاحية تام من قبله لمعرفة كيف يعيش وكيف يقدر أن يعيش ، لقد كان الأمر أكثر من مجرد مأساة حب أو تفضيل أو قصة خيانة . لقد كان قضية تجربة فشل لا دواء لها ، لقد تصور «پاڤيز» أنه قادر على الارتفاع إلى مستوى تلك المرأة وعلى التغذي منها ، وعلى الفناء فيها ، وأن يتبنى علاقاتها مع الواقع حتى تصبح كأنها له . بها كان سيدخل إلى عالم الأشياء الحادة - وكانت قد ورطته في قضية سياسية - وكان سيبلغ النضوج وسيتصرف كرجل بالغ . ولكنه على عكس ذلك لم يستنتج فقط أنهم أبوا عليه اعطاءه المهلة الكافية ليتمكن من ذلك الصعود ، بل استنتج أيضاً أنهم ضجرون من تعقيداته ، ومن أحقاده ، ومن خباثاته الصبيانية . والفتاة الأخيرة التي حدثها في الهاتف قبل اقدامه على الانتحار قد عابته على خلقه السيّئ. لقد قذف به إلى طبيعته نفسها، وهي طبيعة لا يمكن أن تعاش . لم يكن ليمارس أية سلطة على أي كائن بشري انثوي لا بصفته ذكراً ولا بصفته ،جلا ، ذلك على الأقل ما كان يتصوره ، انه غير مناسب وليس هو الانسان الملائم ، وما داموا لا يريدونه أليس أفضل شيء يمكن صنعه أن يختفي ؟ « الانسان لا يقتل نفسه من أجل حب امرأة ، إنما يقتل نفسه لأن حباً ما ، أي حب ، يكشف له بعري تام شقاءه وعجزه ، وعدميته » (مهنة الحياة . ٢٥ آذار سنة ١٩٥٠) .

إن تلك المرحلة الحزينة تكشف وتحدد إلى النهاية حالة مرضية دائمة لدى پاڤيز . وكان الماضي ينذر بتلك الكارثة التي أكدت بدورها

هي أيضـاً عوارضهـا وزادت من حدتهـا ، كل المستقبـل قد وسـم ببصماتها . كان «پاڤيز» في الثامنة والعشرين من عمره ، وهـو العمـر الأفضل لمقايضة الشباب مع التقدم في السن ، ولكن بسبب الحتمية الكامنة في الجسد أو بسبب خبث الظروف ، ودون شك بسبب الاثنين معاً ، لم تتم تلك المبادلة . ويوماً ما، منذزمن طويل أصيب «پاڤيز» بالاغماء عندما قرأ على مركب اسم إحـدى الطالبـات التـي كان يحبهـا : «أولغا» . انه احساس خفي غريب . وفي عدة مناسبات أخرى أيضاً واجه مثل الرفض الذي واجهته به المرأة ذات الصوت الأجش ،من قبل « فرناندابيڤانو » في تموز سنة١٩٤٥ ،ويكتب ملاحظاً بعد سنة من ذلك - في ٢٦ تشرين أول سنة ١٩٤٦ - بشيء من عدم الاكتراث الاكراهي ما يلي : « البيتو... تزوجت هذا الصباح وأنا مصاب بالرشح ،حسناً » ثم من قبل « بيانـكا غاروفي » (Bianca Garufi) وأخـيراً من قبـل « كونستانس دويلينغ » التي أحيت الذكرى في قلبه ، وأعادت إليه التخيلات نفسها ، وصوراً مشابهة خطها قلمه ،كما تشهد على ذلك قصائده الأخيرة .

« خطوتك الخفيفة
قد فتحت الألم من جديد »

وقبل انفصال سنة ١٩٣٦ ، كان« پاڤيز» يتيه باحثاً عن ثروة جيدة تحت قناطر تورينو :

« في الصيف . هنالك بعض الاصائل
« تكون خلالها حتى الساحات نفسها خالية ، معرضة
« للشمس الموشكة على المغيب . وذلك الرجل الآتي
« من بعيد سائراً في الشارع ذي الأشجار التـي لا فائـدة منها ، يتوقف .
هل من اللازم أن يكون الانسان وحيداً ، ليبقى دائماً أكثر وحدة ؟
مهما تهنا خلال الساحات والشوارع
فهي مقفرة . يجب أن نوقف امرأة
والتحدث اليها ، واقناعها بالعيش معاً نحن الاثنين
وإلا فاننا نحدث أنفسنا ، وحيدين ... »

وبعد ذلك الانفصال عبر عن مشاعر الأسى نفسها ! « الضربة السافلة التي وجهتها اليك ، تحتفظ بها دائماً في دمك . لقد عملت كل شيء لاحتوائها ، حتى أنك نسيتها لكن ذلك لا يفيدك بشيء للتخلص . هل تعرف انك وحيد ؟ هل تعرف أنك لا شيء ؟ ولم يكن اقدام پاڤيز على الانتحار وحده الذي أسهم كثيراً في أن يجعل منه حالة خاصة إنما شارك في ذلك الاسهام الشذوذ الجنسي الذي كان مصاباً به والقذف المبكر . وقد خاطر بالكشف عن ذلك مرتين في رسائله الحميمة . وهكذا عبر بكلماته مبطنة في رسالة متأخرة جداً (آب سنة ١٩٥٠) كتبها إلى احـدى الفتيات : « هـل يمكننـي أن أقـول لك يا حبيبتـي انـي

لم أستيقظ يوماً وامرأة إلى جانبي ، وان النساء اللواتي أحببتهن لم ينظرن إلي جدياً ، واني أجهل نظرة العرفان بالجميل التي توجهها امرأة مكتفية إلى رجل ؟ » ويشكو من الأمر في يومياته : « من الأفضل أن لا يولد أبداً الرجل الذي يقذف بسرعة إذ في ذلك عيب يبرر الانتحار ... » يظهر أن حالته كانت مستعصية على الشفاء ، فهو لم يذهب أبداً لاستشارة طبيب في ذلك الموضوع كما كان نصحه « لاجولو » ورغم أنه كان فكرياً ، معجباً بالتحليل النفسي ، فهو لم يستخدمه كعلاج طبي لنفسه . وقد كتب إلى أحد أصدقائه : « لا فائدة من عمل أي شيء ! » . وما من شك في أن ميلا إلى الاستسلام ، واجترار الكآبة ، وبعض النزعة إلى الأخذ بكلبيّة [١] (Cynisme) الصراحة المزيفة وإلى الاستعرائية [٢] . واللذة في نسب المهزلة (Comedie) إلى النفس (وعلى الأرجح المأساة : Tragedie) ولعب دور تجاه الآخرين ، قد شاركت كلها في اغراقه باليأس ، وفي جعل المرض الذي ربما قرر في السر أن يعيش معه ، غير قابل للشفاء ... وان يموت .

وقد ارتدى ألمه مظهرين : من جهة كديك شاب محروم من الانتصار (لم يشهد أبداً الفجر على المنحدر الجنوبي لجبال الألب) وكان يتألم من أنه لم يجعل أبداً امرأة تصل إلى النشوة ، وإلى أنه لم يسمعها أبداً

---

(١) مذهب فلسفي يقول باحتقار العادات وكل ما هو مألوف « المعرب » .

(٢) نزعة الى التعري وكشف العورة « المعرب » .

تصرخ طالبة الصفح ، كان يحدس وهو على حق ، أن المجامعة الحقيقية لم تحصل بسبب نقص في الامتلاك العميق والمستمر، وان الامتزاج لم يحصل، وان الحب الكامل لم يولد رغم التهاب الشهوة ، وان الحياة بين اثنين ممنوعة عليه . يقول :.« تستطيع أن تحصل من الحياة على كل شيء إلا على امرأة تدعوك «رجلها». كان يراقب ويحسد الآخرين ، ويتخيل أكداساً من الأشياء . وكانت الغيرة تتآكله . اليك هذه الصرخة وهو في التاسعة عشرة من عمره : « أشعر بألم هائل عندما أفكر بأنك لرجل آخر ، وان آخر قد استطاع ويستطيع أيضاً حتى النهاية أن يمتلكك كلك » .

من ذلك نشأ ذاك الجو المتوتر من المراقبة ، واصطياد الانثى ، الذي نجده في : « من عندنا » « والشيطان فوق التلال » . وبطريقة عصرية مبهمة لكن بنجاح أقل في « الشاطئ (La Plage) » .

ومن جهة أخرى ولكن ربما بشكل أوضح ، كان يتألم من عزلته ، ومن عجزه عن تأسيس أسرة ، وعن أن يخلف أولاداً » . قال متلهفاً : « عدم التوصل إلى أن تصنع لنفسك بيتاً ، وأن تحتفظ بصديق واحد ، وأن ترضي امرأة ... » . وأيضاً تلك العبارة التي تستنتج بشكل ساخر في « المحادثات مع لوكو » (Leuco) : « إن حظك لكبير وأولادك لن يولدوا ، وسريرك مقفر كالصحراء ... » وعدم الرضى ذاك يظهر في تصرفه . فهو رغم تشبثه الفظ باستقلاليته البائسة كأعزب ، لم يتخذ

أبداً المبادرة إلى الذهاب كي يعيش في مكان اخر غير البيت العائلي حتى بعد وفاة والدته . وكان يشاطر شقيقته الشقة . وتلك الوحدة قد غذت أيضاً بشكل خفي كتابات مثل « بين النساء وحدهن » حيث موضوع العقم هام جداً ، « والمنـزل فوق التـلال » حيث المسـؤولية الأبوية مرتبطة عن كثب مع المسؤولية السياسية . وبسبب شعوره أنه محكوم عليه في الصميم وبشكل نهائي وبسبب أزمات من الربو ناتجة عن السبب نفسه لشذوذه الجنسي كانت تحدث في برهات غـير منتظمـة ، جرجر طول حياته ... تناقضاته التي لم يجد حلا لها . والتربية الصارمة التي تلقاها من والدته (والده توفي عندما كان في السادسة من عمره) قد جعلت منه خجولا منطوياً . غير أن معاشرته للفلاحين الصغار من « سانتو ستيفانو » وبعد ذلك رفقائه في تورينو قد ألهبت خياله ، وفي الوقت نفسه الذي أجبرته فيه على الظهور في صورة حسنة . وطفولته كانت متواترة بلا نظام ، بين الانجذاب والتباعد في ميادين الجنس . كانت الغريزة فيه قوية . والحرية الأخلاقية التي هي في شمالي « شبه الجزيرة » أوسع منها في جنوبها قد ضاعفت ظروف إرواء غليله ، غير أن الشعور اليهودي المسيحي بالخطيئة قد منع عنـه الحـب ، ولطخـه بالقذارة وجعله لاذع اللهجة بالمقابل .وخاصة البيئة البورجوازية ، الشبه كالفينيّة في «بيامونْت» (Piemont) حيث نشأ پاڤيز يمكن أن تكون بمضاعفتهـا تشكيكاتـه ووساوسـه واحساساتـه بالنقص قد هدمـت حساسيته . كتب أيضاً في التاسعة عشرة من عمره : « هنالك حالـة

نتعرى فيها تماماً ، ونظهر أنفسنا ، وذلك لكي نصنع الشيء الأقل عقلانية والأكثر عازاً في الحياة » وكان پاڤيز يخشى الجنس . يقول بطل « المنزل فوق التلال » : « في كل مرة يحصل لي أن أفكر بامرأة كنت أرى تهديداً ». ولأنه كان يعتقد نفسه لعبة بين أيدي النساء ، أراد أن يقنع نفسه بأنهن لسن سوى أداة للذة . وبعبارات أخرى ، كلما كان التيار العاطفي الذي يجرفه نحوهن قوياً كان يبالغ في الشعور بالخيبة ، وقبل العمل كانت شراسة الشهوة تكبته وتجعله يهذي وغير مستقر ، ويبدو كأنه يستجدي ، كأنه يقدم عبادة . وبعد العمل يشعر بالاحتقار والازدراء ، وقد ولدت حالته تلك من التبعية ،في نفسه العدوانية فكان يثار بأن يتوسع في بغض النساء (Misogynie) ولكي يتوصل إلى التغلب على التأثر المزعج ، ولكي يوازن معرفة الغير (Empathie) نوعاً ما ، كان يجبر نفسه على التفكير بشيء من الاعتداد المضحك السخيف - الأحمق عادة متحذلق - ان الحب ليس سوى مسألة مهارة . وكان يحاول أن يمزج المغامرة العاطفية مع النشاط الأدبي ، وأن يجعل المحب يفيد من تجارب الكاتب ، ولكن من الواضح أن التأثير لم يتحقق على الشكل المرجو : إذ ان الكاتب ليس هو الذي نقل معرفته إلى العاشق . بل ان العاشق هو الذي عكر الكاتب بجموحه المسموم .

بؤس العصور

« قضية قذرة أن تجد نفسك بين مخالب التاريخ »
(رسالة إلى « جيو سيب فاندانيا »
(Giuseppe Vandania
(١٨ كانون الأول ١٩٤٤)

ظهر «پاڤيز» عند وفاته بصورة الكاتب الملتزم . إذ انه منتسب إلى الحزب الشيوعي منذ خمس سنوات،وكان يجهد نفسه في النضال داخل تنظيماته الثقافية . وفي سنة ١٩٤٧ نشر « الرفيق »- وهي روايته الوحيدة المحض سياسية - وبدون الحاح كثير .

لم يكن پاڤيز في داخل نفسه ، ولن يكون أبداً الرجل الذي كان ينم عنه مظهره في تلك السنوات . فلا الايمان بالنظرية الماركسية (كان يفضل السلاليين (Ethnologues) على الاقتصاديين . وهومير على انجلس) ، ولا ادراكه لانتمائه إلى الطبقة العاملة (إذ انه من أصل بورجوازي صغير) هما اللذان أقنعاه بالشيوعية وإن ما فعل ذلك هو مجموعة معقدة من الظروف العامة وردّات الفعل الخاصة . ولم يكن لمؤلفاته أبداً أي تأثير في زيادة عدد الأعضاء في صفوف الحزب .

ولكن من الخطأ النظر إليه كلا سياسي انتهازي وانهزامي أثارته تطرفات العصر الفاشستي، وخرج سلبياً من فظائع الحرب مبشراً بفك الالتزام، ولا يهتم في زاويته إلا بتشغيل طاحونته بصلوات بلاغته الشخصية . تورينو في النصف الأول من العصر ليست روما ولا نابولي ففيها متطلبات ملحة ، كما نجد فيها الندم على خباثة تلك المتطلبات غالباً ، مما يشكل كسباً اجتماعياً أساسياً لدى «پاڤيز» .

طول حياته كان سيردد : ان السياسة لا تثير اهتمامه. وأنه « يشعر » بها . وهناك شيء ما سيضطره - وقد اضطره - إلى بذل مجهودات ثقافية وخاصة نفسانية متعبة جداً، ليس فقط من أجل ممارسة العمل، ولكن ربما أيضاً من أجل التفكير في نهج سياسي . والصعوبة التي لقيها في النفاذ إلى داخل المجتمع ، وإلى أن يرخي بثقله على مصير التاريخ، كانت من الطبيعة نفسها التي ميزت عجزه عن الحياة « لكي نعيش يجب أن يكون لدينا القوة ، وأن نفهم ونعرف أن نختار ، أما أنا فلم أعرف أبداً كيف أفعل ذلك . كما أني لا أفهم شيئاً في السياسة ، ولا في التحـركات الأخرى للحياة . » وقدموّه ذلك النقص بلجوئه إلى سفسطائية مشوّهة ، كما فعل عندما حاول اقناع نفسه ، واقناعنا بأنه لا يصبح في بعض الأحيان متعصباً للسياسة إلا لكي « يحقق تحقيقاً أسرع الشروط الليبرالية التي يستطيع أن يحيا فيها متجاهلا السياسة » أو عندما كان يطلق ، مقدماً ، على الثورات أحكاماً تشاؤمية ، وعشوائية بالنسبة إلى

الحدث وواضحة بالنسبة إليه « الثورة الفرنسية في نظري يجب أن تحدث أيضاً ، وعندما ستحصل ، ستثير اشمئزازي » .

من يستطيع أن يحيا خارج المجتمع والسياسة ؟ الوسط الاجتماعي يستقبلك ويؤثر فيك ويقولبك منذ لحظة مجيئك إلى العالم . أما عند سيزار پاڤيز فان تلك الميول الابتعادية مدعاة للسخرية وللرثاء بقدر ما ثبتته الأقدار الساخرة في أوقات عصيبة في تورينو : مدينة غرامشي (Gramsei) والثورات العمالية ، وقلعة المعارضة الليبرالية ضد الفاشستية ،وجعلته يولد في« سانتو ستيفانو بلباتو »، حيث- كما يروي « فينو غليو » (Fenoglio) في « حرية فوق التلال » - كان يلتقي الأنصار الحمر والأنصار الزرق (قدامى جنود الجيش الملكي) أيام الأحد ويتشاجرون على نيل رضى الفتيات .

كان «پاڤيز» يتنشق مع هواء جبال الألب القريبة خلق العمل ، وعبادة النشاط المنتج . وقد اكتشف كد الرجال - رش الكروم بالأدوية ، وأعمال الري من «البو» ، وعبودية المصنع - وقرنه مع سيطرة العلم روحياً . غير أن الشعور بالاحترام هو الذي تملكه مالئاً نفسه أكثر مما فعلت فكرة التقدم ،عندما كان يتيه في ذلك المحيط الصناعي للمدينة ، مدفوعاً ببعض الميل نحو التقشف . وليس من الصدفة المحضة أن اشعاره تحمل عنوان : « العمل بتعب » كما تحمل يومياته اسم : « مهنة الحياة » . وذلك الشعور بالتحمل يترافق مع العطف نحو الذين خاضوا

التجربة ، فهم بصعودهم إلى «تورينو» طلباً للقمة العيش سقطوا في البؤس .

« ... لقد تعلم كيف يشتغل
في المعمل دون أن يبتسم . لقد تعلم أن يقيس
على كده جوع الناس الآخرين
ولم يلق في كل مكان سوى المظالم »

وإذا كان «پاڤيز» متشائماً بالنسبة إلى الحياة ، كمفكر يميني - يمكننا القول - فانه لم يكن أبداً محتقراً للضعفاء ، وغير مبالٍ بمصير الفقراء : وفي هذا إذا لم يكن دماغه إلى اليسار ، فقد كان قلبه كذلك على الأقل .

وفي سياق دروسه ، استطاع أن يتهرب من التلقم بالدعايات الرسمية ، لكي ينهل من العلم ومن صداقة استاذه في الكلية : أوغوستو مونتي : (Augusto Monti) ثم من بعد في الجامعة برفقة رفاق ممتازين : أن ينهل آراء عن العالم مصبوغة بالليبيرالية والاشتراكية . وأخيراً ، لامس عن كثب الجماعة التورينوية للحركة المعادية للفاشستية المدعوة : « عدالة وحرية : (Giustizia E Libertà). ورغم أن تآمره كان صبيانياً إذا صدقنا شهادة ، «ناتاليا جينزبورغ » كما قلنا ،فقد أوقف وقضى عدة أشهر في سجون تورينو ، وروما ، قبل أن تفرض عليه قرية «برانكاليونة» (Brancaleone)، الواقعة على الجهة الأيونية من

«الكالابر» (Calabre)،كمكان اقامة جبرية تحت المراقبة حيث مكث من ٥ آب سنة ١٩٣٥ إلى ١٥ آذار سنة ١٩٣٦ .

وإن ما يستلفت الانتباه في تلك المرحلة من بين أشياء أخرى متعلقة بنضال اليسار ضد الدكتاتورية الفاشستية صفتها غير التاريخية نوعاً ما بالنسبة إلى «پاڤيز» .

الصدفة وحدها الناتجة عن علاقة غرامية ، لا صلة لها بالنشاط السياسي أو العقيدة الحزبية ، قد أوقعته في الفخ . وذلك المظهر الظرفي للقضية هو بالعكس أساسي بالنسبة إلى «پاڤيز».ورغم أن مؤلفاته مليئة بالنساء وقصص المضاجعات فان ما من شيء انساني لديه يكون الحب غريباً عنه : فالحب هو الذي يقود أولا يقود إلى النجاح ، والى الانطلاق ، وإلى «المقاومة» والماركسية . لأن من الطبيعي باعتبار اشباع الرغبة مسؤولية أولى - سواء أجرى تجنبها أم كان من المستحيل تحمل تبعاتها - ان نقود المرأة ، ومعاشرة المرأة إلى المسؤولية الثانية للعمل في المجتمع . تلك العشيقة في حياة پاڤيز يمكن أن تعين ، في حال التزامه بحبها حتى العمق ، هذا التصرف أو ذاك . وذلك ما حصل في كتابه «الرفيق»، حيث أن تغيرات القلب وتقلبات العواطف هي التي تحدد التطور الروحي ، ووعي الضمير . هل تريد أن تعرف بماذا يفكر بطل تلك الرواية ؟ إذن فتش عن المرأة . وتنشق أريجها . إن «ليندا» المعطرة تمثل العقلية الطائشة للمعارضة من قبل بورجوازية أفسدها المال جداً ، وهي بوهيمية

جداً إلى درجة لا يمكنها معها القيام بأي عمل ضد الحكومة بشكل جيد كما لا يمكنها، ولكونها نفسها جبانة ، الاعتقاد بالأخطار المعترضة . اللف والتآمر يترافقان جنباً إلى جنب في تلك المسرحية الهزلية الخفيفة (فودفيل)، ولا تتحول الأوبريت إلى مأساة، ونجد أنفسنا بين أناس جديين يهتمون بأشياء جدية، إلا عندما تدخل« جينا »إلى المسرح - وهي على الأرجح تشعرك بالشحم الأسود - .

تلك المسيرة تعكس حقيقة : حقيقة فاشستية أرادت أن لا نخوض سوى حرب مناوشات ضد انسانية ليبيرالية تعرفها مسالمة طالما بقيت امتيازات طبقية، ولكن إذا نزلت تلك الامتيازات إلى مستوى العمال زالت سلميتها وبدأت عندئذ الضربات تهبط كالمطر .

وثانياً منذ أن وقع «پاڤيز» في الفخ ، أخذ يتخبط ويصرخ أوَ أنه كان يتفجر ضجراً ، لم يكن يرغب في قبول ما حصل له ، أو تظاهر بأنه لا يرى فيه سوى لعبة دنيئة لكي يخدع سجانيه الذين كانوا يراقبون مراسلاته . وهو صاحب تلك العبارة التي يمكن أن تكون دون قصد منه مفتاح العلاقات مع العصر « كل الناس يعرفون أنني لم أهتم اطلاقاً بالأشياء السياسية ، إنما في الحالة الحاضرة ، يظهر أن الأشياء السياسية هي التي اهتمت بي » رسالة إلى شقيقته من سجن « ريجينا كوويلي » في روما (Regina Coele)

في تلك الأوقات كان الكبار من المهاجرين الألمان، كتوماس مان

(Thomas Mann) وبرهولت بريخت (Berholt Breht) ، قد بدأوا إعادة سقي انسانيتهم في بوتقة المنفى . وبعد سنة ، في سنة ١٩٣٧ مات السرديني غرامشي (Gramsei)، التورينوي بالتبني، في احدى العيادات المحصنة بالقضبان الحديدية ، بعدما استوحى في السجن كتابه وألفه . لم يتخلص أحد هؤلاء الرجال من ثبوط الهمة ، ومن الضعف في اظهاره في بعض الأحيان . ولكن عند الجميع كان احترام الذات وحفظ الكرامة ، وواجب الدفاع عن قضية والتعبير عنها ، أقوى من تلك الحالات المؤقتة من الضعف ، مما جعل هذه الأخيرة تنتسى . بعكس «پاڤيز» الذي لم يكن يكف عن الجأر بالشكوى من الظروف غير المريحة للمعيشة ، وعدم تفهم الفلاحين ، وعدم الأمانة المحتملة من قبل أصدقائه القدماء ، والوحدة التي كان يقاسي منها خاملا باصقاً في البحر الذي يكرهه ، قاضماً كبره، مفسداً دمه من قلة الصبر والغضب : إنه سرد رائع مستمد من لهجة «پاڤيز» المشهورة تلك (القلقة السريعة الانفعال) وهي خليط من الحقد ، والاستهزاء بالذات ، والتهافت المليء بالشك والهيجان الجنوني الهستيري ، والدموع المكبوتة ، والاغماءات. إنه يأس يؤدي امتداده إلى الهستيريا والوهن .

ومما يلفت النظر أن «پاڤيز» في قصة «السجن» التي تعرض الاقامة في سجن «برانكاليونه» قد أدخل قصة المنفي الآخر الذي عاش في القرية من عل ٍ والذي لم يذهب «ستيفانو» أبداً ليراه . لأنهما مهما كانا رفيقي بؤس ، لم يكونا من النوع نفسه لا في نظر البوليس ولا في نظر

الكاتب الذي يتذكر. وفوق الأعالي البائسة ، وربما الروحية ذات الجدلية الساذجة حيث كان ذلك الرفيق يقاسي من الخمول ، كان «ستيفانوا» يفضل المستنقع المنخفض والشاطىء وزبائن احتساء الخمرة وامرأتين كانت احداهما هدف اللذات الكئيبة والأخرى منبعاً للشهوات الخرافية : وباختصار جو الذبول ، والسلبية المراوغة والجهة المبهمة والاجرامية سراً العائدة جميعاً لقرية من قرى ميزّوجيورنو (Mezzogiorno). الاعتقال والسجن واطلاق السبيل لم تقرّب « پاڤيز » من السياسات التي كان بامكانه أن يتمثل فيها بشكل عام وبدون الكثير من الخباثة ،ولكنها على الأرجح قرّبته من « الحقوق المشتركة » كأنه لعب دوراً في التنكر وتحويل نفسه إلى بطل من أبطال السجن ، وإلى مكرر. وهكذا ينحو في العديد من قصصه في مطلع كتابه : « من عندنا » ولكن أيضاً بتأثير الأدب الأميركي للجيل المتفتح (Beat Generation) . هكذا ينمو نوع من الغزل والاختلاط الكاذب مع عالم اللصوص، ونوع من الاجتماعية البائسة والحقود الموجهة بدرجة متفاوتة من الوعي لكي تحرك بدون شك ، على مستوى التخيل احتراماً بارزاً بروزاً زائداً ، الواجب المدني. وپاڤيز لم يكن قد عاش هناك سوى هزلية مأساوية من الشباب . إذ ان الأسوأ كان ينتظره ابتداء من سنة ١٩٤٠ . فلا رسائله ، ولا يومياته تعطي الانطباع بأنه كان متهيئاً للتجربة . وكلمة «نازية» لم تظهر للمرة الأولى إلا بتاريخ الأول من تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ في كتابه : « مهنة الحياة » ، وهنا أيضاً تظهر

دائماً فكرة التاريخ الفخ الذي يسيطر على رؤياه . فهو يكتشف نفسة ضحية . ولولا قليل كان سيعلن أن تلك الأشياء لا تحدث إلا له . بينما أن الاستبداد يلقي بثقله في كل مكان . وبدلا من التسلح بالشجاعة نراه يجأر بما يلي : « الجوقياس : فاما قديسون واما جلادون . لقد وقفنا حقاً »

ورغم ذلك كان الطريق الذي خط له كاملاً. فقد عرف وهو طفل ، أعمال عنف حددت نهائياً اتجاه حساسيته موحية إليه الخوف من القسوة ، واحترام الشهداء مثلا تلك المجزرة التي قضت على أحد عشر معادياً للفاشستية في تورينو بتاريخ ١٨ كانون الأول سنة ١٩٢٢ والتي تتردد أصداؤها في قصيدته : « جيل » (Generation) .

وبعد ذلك أحاطت به شرذمة من الأصدقاء ، واستطاع معهم « القيام بدور اليعقوبي والتقدمي » . وقد رآهم فيما بعد ينصرفون إلى العمل المباشر ويدفعون في سبيله من أشخاصهم . ولكن عند سقوط النظام لم يسر « بافيز » على خطى أي من رفاقه في المقاومة : بل التجأ إلى عند شقيقته ، في « سرّا لونغا » (Lunga Serra) في «المون فيرّات » (Mont Ferrat) حيث علم بالتتابع بموت صديقه : « جييم پينتور » (Giaime Pintor)، وأيضاً بالموت الأكثر فظاعة لليونيه جينزبرغ (Leone Ginzberg). فهذا الأخير قد عذب وكسر فكه في زنزانته بسجن « ريجينا كويلي » ولكي نستطيع

أن نسبر الألم الذي ألحقه به اختفاء صديقه هذا علينا أن نعود بالذاكرة إلى شخصية «هوفمان» في « تحية يا مازينو » ! فهو مفعم بالاندفاع،وقح صلد كصخرة ، يثير الاعجاب المضاعف لدى « ليونية » الذي منه نهل «پاڤيز» عدم الاكترات بالاستحمام والسكرات الجديرة بالذكر ، وحدة الذهن المتنبهة للتصرف الأخلاقي . والشيء الغريب أن «پاڤيز» وكأنه يستبق الزمن يتأمل هوفمان ذاك ميتاً في مرحلة يدعوها «دينية» ويجد نفسه غير فعال وواهناً قرب تلك الجثة . ويجب أيضاً أن نتأمل في بعض العبارات التي كتبها «پاڤيز» عند إذاعة الخبر المفجع : « ... إني أعيش كما في ضبابة دائم التفكير ولكن بشكل غامض ، ننتهي بأن نعتاد تلك الحالة ، حيث نؤجل دائماً إلى الغد الألم الحقيقي وبذلك الشكل ننسى ولا نكون قد تعذبنا ». الخوف من العجز عن التحمل ، والغش لكي نتجنب تحمل ذلك الاختبار الفاضح واخفاء الأشياء واضعاف حدة الأحداث ، والاستتار بالقطن ، والتسويف والتأجيل وتخدير النفس لمعرفتنا بأننا حساسون جداً لم تكن رسائله في عهد الشباب . فقد كف پاڤيز عن اظهار مخالبه ، ومدلسانه ،والديك الشاب لا ينفخ ريشه وهو منتصب على مزبلته بسخرية . وانطوى على نفسه والبعض يقولون يصلب ، إن النهاية قريبة .والحكم قد وقع،غير أنه فهم أيضاً أشياء أكثر مما فعل قبلا ، وذلك الفهم البعيد عن توجيهه نحو العدمية قد أعطاه المقدرة أن يرمي خارج نفسه نوعاً من الأنصار مثل «توسيو» (Nucio) في « القمر والنيران » ، «وسياسياً» حسب قلبه بالتأكيد ، رضياً ، مفكراً

قريباً من الاهتمامات العائلية ، أما بالنسبة إلى «پاڤيز» فانه مع الأسف خاف ، من الألم الجسدي بقدر ما خاف من العذاب الذي يفرضه عليه الألم الجسدي للآخرين . خاف من أن يخاف ، أما معسكره ، فقد اختاره ، وانتسب اليه فيما بعد . ولكن ما لم يرد أو ربما لم يستطع اختياره هو تلك الطاقة للخدمة « تعرف يا كورّادو» (Corrado) كثيراً من الأشياء ولا تعمل شيئاً لمساعدتنا » تمتمت كات (Cate) تلك السياسية الأخرى وهي أم وامرأة حسب عاطفة الكاتب في « البيت فوق التلال » حيث « بافيز » قد قام بعمل بطولي بوصف نفسه بأوصاف جبان لا يملك شجاعة .

وابتداء من نهاية الحرب لم يأت يوم على «پاڤيز» دون أن يغرز نصل تلك المناسبة الفائتة في لحمه ، مشرفاً على الجرح معتنياً به . وان الشعور باخفاقه في التقيد بالموعد مع الموت ، وكذلك الموعد مع الحياة قد لاحقه ، وتظهر نبرة الأسف في قصيدته : « أنت لا تعرف التلال » : « إنه مذنب لأن كل حرب هي حرب مدينة : كل الذين يسقطون فيها يشبهون الذين يظلون على قيد الحياة ويطلبون منهم تعويضاً عنها » .

وفي سنة ١٩٤٥ أصبح «پاڤيز» في آن معاً أقوى باعتباره قد نضج بسبب التجربة ، وأضعف باعتباره مدفوعاً إلى التحرك كجميع الناس . ومن المؤكد أن ذلك الخليط من الالحاح الحميم ، والسلبية داخل تيارات العصر هو الذي دفعه انطلاقاً من الرغبة في المخالصة ، إلى الاقرار

بذنبه على انتسابه للحزب الشيوعي ، ذلك الدير المخصص للعلمانيين حيث كلما انصرفوا إلى الاماتات ، كلما شعروا بأنفسهم موعودين بولادة جديدة . .

غير أنه من الغريب أن يكون صحيحاً أن ياڤيز ، قبل انتسابه إلى المادّية الماركسية ، قد ابتعد عنها على أقصى ما يمكن طلباً للمقدس ، ويظهر أن أزمة معنوية وغيبية أيضاً قد رمته في الهواء سنة ١٩٤٤ وأنه سقط في الغطاء الوحيد المنشور تحته في أيام التحـرير : غطـاء دين الانسان .

والبعض من اليسار قد ارتاحوا لذلك الالتزام وآخرون من اليمين لم يرضوا عنه . أما الحقيقـة فيظهـر من الواضـح أن ذلك التصرف الناشئ فقط من شعور بالتضحية المقتصرة على الفترة الفورية لما بعد الحرب ، ومن شعور بالاثم قد منحه بشكل خطر الاحساس بأنه محروم من مستقبله وأدى إلى جعله معاقاً في ميوله . وكونه أسيراً أقـدم على الهرب باللجوء إلى الانتحار . وخطؤه يعود إلى أنه التزم بما سيكونه وبما أراد الذين يحيطون به أن يكون ، بينما هو كان ملتزماً محـدداً موهوبـاً بالنسبة إلى ماضيه ، وبالنسبة إلى الادراك الذي كان عليه دائماً لما كان ذلك الماضي يخبئه من ضغط عليه . فجذوره الأصلية ، وثقافته وتعقده العصبي قد حكمت عليه في عصر النار والحديد بأن يتحمل مصيره كشاهد مكبل ، وبأن يعرف عار العجز والخيانة ، وأن يكون في نظـر

معاصريه حتى تاريخ قريب رمز الادراك السيّىء مما يعتبر اليوم غير صحيح تاريخياً إلى درجة التفاهة ، ولكن أليس من الأفضل أن يكون للانسان ادراك سيّىء من ألا يكون له أي ادراك ؟ وخاصة ومن الوجهة الأدبية ولكي نتكلم بشكل بذيء، إن الكبت أكثر خصباً من البلاغة العدوانية الداعية للحرب .

إن التأسف على مجتمع لا يمكن النفاذ اليه ، والصعوبة التي يلقاها طالب كسول منتش بفتاة أمام أشغال صعبة للأرض والنهر ، وقلق الفنان والقيثارة ليست عملا كما يقول في «الرفيق» وسيكون الأمر كمن يتناول أجراً لكي يرتدي لباساً أنيقاً . عملي هو «الأوتوستراد» . تلك كلها نفح من جميع مسام المؤلفات صحيحة اللهجة متواضعة الفكرة وتصبغها بلون شعبي . أما « البيت فوق التلال » وهو قصة غير الكفء الذي لا يستطيع فهو من كثافة قوية أخرى ، ومن نوعية أخرى من التأثر تختلفان عن «الرفيق» الذي هو قصة بنّاءة بشكل خفي لمن يجهد نفسه ، والذي يمكن يوماً ما أن يستطيع ... كان من الممكن أن يكون «پاڤيز أكثر فائدة لليسار ، لو أنه قلب رأساً على عقب خمول ارادته الضعيفة بدلا من أن يرفع في صالة العرض المهداة إلى البطل الايجابي مسودة رسم لصورته الكاملة . .

« على الفن أن يكتشف في نفسه حقائق انسانية جديدة ، لا مؤسسات جديدية » كتب في آذار سنة ١٩٥٠ .

« على جبهة الثقافة »

« دوري العام ، قمت بـــــه »
مهنة الحياة ، ١٦ آب سنة ١٩٥٠

لنأت إلى الأسهل الذي ، بسبب بداهته ، نادراً ما يؤخذ كأنه الأساسي .

«پاڤيز» يملك موهبة الكتابة ، والدعوة اليها . لماذا ؟ نجهل ذلك وخاصة أننا غير مطلعين على الظروف التي استطاع من خلالها ادراك تلك الحاجة . ويظهر أن قراره على ما نعرف يعود إلى الأيام الأولى لعهد شبابه « أنا الذي وصفت المثال الأعلى لحياتي في الشعر » كتب عندما كان في السابعة عشرة من عمره .

وهكذا كما هو طبيعي، فان حب الأدب ليس شيئاً غريباً بالنسبة اليه فهو حار كالمراهقة حزين ، يائس ، متدهور ، فردي أناني تبعاً للأذواق التي فرضها «دانّونزيو» (D'Annonzio) على العصر . إلى درجة أن ولادة تلك الدعوة ليست هي التي ترتدي الأهمية الكبرى - رغم أن آثار

«پاڤيز» قد حافظت بشكل دائم في ظل تمتعها بالتفاهة المستثمرة بشكل دقيق ، على سمة الغروب وسيرة الحياة الذاتية -بل إن ما فعل ذلك هو تحول تلك الدعوة فيا بعد .

الشاعر الشاب لم يجعل من نفسه إلا موفقاً، فارس مخاطرات تهدف حياته الموضوعة في كلمات إلى استهواء مجتمع يقال عنه : مثقف . وعلى العكس ومبكراً جداً ، وربما بسبب علمه بتكوينه التافه كرجل يستطيع التمتع بالوجود لقلة عبقريته ، عرف أنه لا يستطيع أن يكون صاحب قلم مدعو إلى خدمة الآداب بشكل غامض أكثر مما هو مدعو إلى استخدام الآداب في سبيل بناء مجده بالذات . إن طموحه كان يتحرك تابعاً وليس متبوعاً . وكان على وعيه السيئ أن يتحرر ، بسبب عدم المشاركة في المعركة السياسية والاجتماعية، بالنضال على جبهة النضال الثقافي ضد التقاليد الخانقة والمحظورات الجديدة التي أتت بها الفاشستية . وفي حديثه سنة ١٩٣٥ عن ميل التاريخ إلى عدم اعتبار ظواهر فعالة ، إلا الثورات العنيفة ، يمتدح إلى حد التبجيل ، حركة انكفاء مقدراً أن كل شيء في التاريخ ثورة ، حتى ان تجديداً ما ، أو اكتشافاً غير ظاهرين وسلميين يعتبران كذلك ثورة . فهو إذن يخوض لحسابه ولكن دون أن يفقد الأمل في العمل لمصلحة المجموع ، ثورته الثقافية الصغيرة ، وفي هذا المعنى وبجمعه كرائد ذينك المبدأين المتناقضين ظاهرياً من الثقافة والانقطاع، ويمكن أن يكون أقرب الينا من معاصريه، لأنه من جهة لا يتبنى اطلاقاً موقفاً ثقافياً ايديولوجياً

ضيقاً ومانوياً[1] ، وإنما موقفاً منفتحاً على جميع تيارات الحضارة . ومن جهة أخرى ، لا يفصل اطلاقاً النشاط الأدبي مهما بدا غير مبرر ، عن مرجعه التاريخي وعن المعاني التي تكمن فيه . ومع المحافظة على نوع من منفذ للتهرب مرتبط بممارسة الكتابة لا تحتوي آثار پاڤيز حجة «غيبية» كما ظن غالباً أنها تحتوي . ووصفه الذي اشتهر عنه بأنه حر في اختراع الصور كان بالنسبة له دائما وسيلة للامتزاج مع مصير الآخرين والعالم والابتعاد عنه ، لقد كانت له طريقته الخاصة في النضال .

والمفهوم الذي كونه عن واجبه ، كان ذا تأثيرات متعددة . فعـ مستوى العمل المباشر كان «پاڤيز» يريد نفسه مدعواً باسم الحقيقة إ مهاجمة اللفظية - وهي الاغراء الدائم والثقل المعلق بكاحـل الأد الايطالي - مما يؤدي إلى تحطيم حلقة الاتفاقات الـوطنية أي عجرفـ الأوتارشية التي بمنعها التبادل والمجابهة ، تحول الخلـق والابـداع إ تمارين كتابية سخيفة . وبالعكس ان التطلـع إلى مكان آخـر تنشـ نسمات بعيدة (ذلك الحنين إلى بحار الجنوب نقطة انطلاق الاوديسه الپاڤيزية) لا يحمل نماذج للتقليد ،بل يجعل من الممكن تصور تأثرا واستخلاص نتائج . وعلى مستوى أكثر دقـة لا في الهـدف الواجـ الوصول ليه بل في الوسيلة التي تمكن من بلوغه ، يحصر «پاڤيز» نف

---

(١) نسبة الى ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام « المعرب »

في حدود واجب متواضع متجه بانكباب ومثابرة . فيذيب نفسه في شخصية الكاتب المجتهد الذي رغم جوعه للتشرد ، يقوم كل يوم بالعمل نفسه كمركب الآلات في معمل «فيات» لا يطلب لنفسه لا شرفاً أكثر ، ولا تسليات أكثر يقول مترجيا : « لا تحدثوني عن الانتصارات الأدبية . إن تلك الأشياء تجعل الانسان يحمر خجلا : اما بسبب الهوس للثرثرة الذي تثيره ، وإما لأنها تنم عن فساد المحيط المهني »

جرب «پاڤيز منذ محاولاته الأولى الشعرية أن يتميز عن الآخرين . إنه يريد أن يجدد ، وأن يكون عصرياً . يكتشف أو يظن أنه يكتشف شكلا جديداً للغنائية المجازية واللفظية ، ما يسميه « الصورة القصة ». ويعلق على نفسه بنفسه في مقدمات وفي نهايات وينشئ فناً شعرياً غير مطروق . وكذلك فان قطعه النثرية الأولى . وخاصة « من عندنا » تدل على جهد مدعوم وبعض الأحيان مبالغ فيه للخروج من السبل المطروقة ، لايجاد عمل فريد من نوعه . وان شكلا من التدقيق الزائد ، وتشبثاً زائداً بالفكرة تجعلان تلك القطع مكثفة جداً ، وفي الوقت نفسه اصطناعية جداً بسبب الارادة الملحة لاختراع لغة خاصة . وپاڤيز يعلق أو يتظاهر دائما أنه يعلق فوزه على حل بعض القضايا : - استخدام اللهجة الخاصة أو اللهجة العامية - أو الحصول على بعض المهارة أو تحقيق تقنية معصومة . وإن استخدام العبقرية كمهنة ، هو الاهتمام الوحيد الذي يحمل ثقة واطمئناناً إلى القلق الدائم الذي يحل مكان الديناميكية الفورية بديل العناد الشديد المراس . ويصر «پاڤيز» على أسنانه ، إذ من

الواضح أن ذلك العناد قد أخرجه من الخمول وجعل منه محترماً ذا كفاءة ووزن . ولكن يمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان ذلك العناد لا يخفي تحت قناع عيباً في الاستلهام وخاصة ، إذا لم يؤد -نتيجة للمبالغة - إلى العقم .

ويظهر «پاڤيز» تذوقاً حاداً للأعمال الشبه الأدبية لا بصفة رئيس ورشة أو محرك نشيط ، بل بصفة موجه سياسي خفي ، وناسخ كتب في المؤخرة ، فبين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٥٠ نشر تسع عشرة ترجمة عن الانكليزية بينها :

« موبـي ديك » (Moby DICK) «لميلڤيل» (Milville) ،
« مـول فلانـدرس » (Moll Flanders) «لديفـوي» (Defoï) ،
« خط العرض الثاني والأربعـون » « لـدوس باسـوس » (Passos Dos) « ديدالوس » (Dedalus) «لجويس» (Joice) الخ ...

ومنذ سنة ١٩٣٦ بدأ يهتم بمجموعته : ساجّـي (Saggi) أي «محاولات» التي أنشأها تلك السنة في دار للنشر صغيرة خاصة «اينودي» (Einaudi) التي خاضت بقوة وضد جميع الضغوط حرب استنزاف طويلـة وشعارهـا : (Durissina Coquit Spiritus) أي « الفـكر يتغلب على كل شيء » .

وفي سنة ١٩٣٨ قبل أن يوقع مع تلك الدار عقداً جائراً التزم فيه بتخصيص كل وقته للعمل فيها . وقد جعل منه ذلك العقد عارضاً في

حركة النشر . وفي ظل تلك الفترة ، اشتـــرك مع «ڤيتوريـنـــي» (Vitorini) في ادخال الأدب الانكلوسكسوني إلى ايطاليا ، وإلى دعم تأثيره في تلك البلاد مدة طويلة ، أما انجذابه نحو الولايات المتحدة عبارة عن هوى ، يشبع نفسيته البييمونتية المهتمة بالفعالية والاستقامة المدنية (روح النيو ديل) (New Deal) لروزفلت ، بقدر ما يشبـع ظمأه للأراضي العذراء ، والتوحشية السوداء ، ويظهر بهذه الطريقة أنه كان يداري نفسه . وأنه كان يريد أن يزود ايطاليا بمنابع لا تنضب من الحداثـة . لقـد أنـزل من جديد انتـي[1] ، (Antée) فوق أرض أميركا .

ثـــم أنــه بانشائـــه مجموعتـــه البنفســـجية الانتروبولـــوجية (D'Anthropologie)[2] ، حيث تتجاور أسماء : «جونـــغ» (Jung) ، «وفرازر» (Frazer) «وكيرينيي» (Kerenyi) الخ ... فتح أمام الذكاء وأمام الخيال ماضياً مما قبل التاريخ ، وزود المعرفة الانسانية بفرصة للتعاون بين العلوم والفنون لم ينته من اعطاء ثماره . وأميركا تلك التي أحبها كصورة عن المستقبل بحث عنها أيضـاً في

---

(١) جبار ابن بو زيدون وغابا - تصارع مع هيراميكس فلاحظ؛ هذا الأخير ان قوى المسخ تعود اليه كلما لامس الارض ، فرفعه عنها وتمكن من قتله . « المعرب » .

(٢) علم يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وكل ما يتعلق به من عادات ومعتقدات وحضارة ومدنية .

مجمل القواعد الأساسية لأوروبا في وقت لم تكن فيه هذه الأخيرة قد أصبحت عجوزاً كما هي اليوم بل كانت منبعثة ومقدسة : كانت ناراً ودفاً مهراقاً منبثقين من العصر الأسطوري لما قبل هوميروس . وفي زمن حطمت فيه النازية الانسانية التقليدية ، تدخل لكي يعطي لانسانية أعيد التفكير فيها من جديد قاعدة واسعة محاولا أن يعيد إلى التوازن والتناسق القوى الغامضة التي ظن المثاليون خطأ ، أن الانسان تخلص منها .

وهكذا فان القصاص لدى پاڤيز يتضـاعف إلى شخصية رجـل مثقف ، استطاع باجتيازه الحدود من بلد إلى آخر ومن قارة إلى أخرى ، وأيضاً من مسلك ثقافي إلى مسلك ثقافي آخر : أن يطور الأدب الايطالي وأن يحوله بدفعة إلى التنافس في الحداثة مع الغرب ، مغذياً أياه هكذا بوسائل الوجود العائدة لعصره وموقظاً فيه الوعي للواقع مما منحه الحق فى أن يكون في جميع العصور : ثورة تتجاوز كثيراً الواقعية الجديدة العائدة لسنوات ١٩٤٥ - ١٩٥٠ .

ونلاحظ أن الرجل المثقف ذاك نفسه يختبىء أيضاً في الكاتب المبدع الأكثر حميمية ويتفوه بمتطلبات تلبس الوساوس الشخصية «لپاڤيز» معنى أكثر غنى مما هو سيرة حياة صرفة ، أو تحليل نفسي ، الاجترار المرير ! صحيح أننا نجده في صفحات اليوميات ، إلا أن النصوص المكتوبة من دم آخر : انها لا تشكل مجتمعة كتلة من ردات الفعل العصبية ، بل تشكل

أثراً مدروساً ،مبنياً ،مرتبطاً بالموضوع ومأمولاً منه أن يكون نموذجياً ، أقرب إلى «الجنسينية»[١] ، منه إلى التساهل . لقد أراد «پاڤيز» أن يغير الأدب . وأن يغير الحياة عن طريق الأدب وأن يتحول هو نفسه سواء في آرائه النظرية ، أم في اللهجة المستهجنة ، الشاذة لكتاباته ، والحداثة في تركيب تلك الكتابات .

في ذلك السهل الصناعي «لبييمونت»(Piemont) حيث يجري التبشير بأن كل جهد مأجور والذي تسيطر عليه الوديان المرتفعة القودية[٢] ، التي تخترقها البروتستانتية ، قدم لنا «پاڤيز» الخطوط الأولى لأدب ناشط طهري[٣] ، (Puritain) مترمت كلما طالب بانكار الذات ، كلما كان له الحظ في التوصل إلى الخلود والدوام ، وإلى بعث الشاعر المحتاج المجد . يعترف الكاتب المتمرن قائلا : « من بين أن أكتب قصائد أو أتابع الدراسة ، وجدت في الثانية الراحة الكبرى والأبقى » ثم بعد مدة ، وبمناسبة ما جلب له الشعر قال : « لقد علمني أن أسيطر على نفسي ، وأن أستعيدها وأن أرى بوضوح : لقد أفادني الشعر من الوجهة الأكثر عملية للكلمة » .

---

(١) نسبة الى « جنسينوس » وهو صاحب مذهب النعمة الالهية وهو مذهب اخلاقي مسيحي متشدّد « المعرب » .

(٢) نسبة الى ڤود المقاطعة السويسرية « المعرب » .

(٣) نسبة الى جماعة بروتستانتية في انكلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تطالب بالتمسك باهداب الفضيلة .

وأخيراً في مقدمة « المحادثات مع لوكو » (Leuco) يقول : « إننا مقتنعون أن بوحاً كبيراً لا يمكن أن يخرج إلا من الالحاح العنيد على حل الصعوبة نفسها . ليس لدينا شيء مشترك مع المسافرين ، والمجربين ، والمغامرين ، ونعرف أن آمن طريقة وأسرعها لاثارة إعجابنا هي أن نثبت نظرنا دائماً في الشيء نفسه برباطة جأش » .

ولكن من المحتمل أيضاً أن تلك الرقابة الحديدية على الذات المستهدفة التعويض عن ضعف البنية والأزمات المرضية اليومية ، هي التي استهلكت الطاقة ووترت القوس إلى حد الانكسار . يقال أن «پاڤيز» كان سيقتل نفسه في حمياً الواجب ، وفوق الكومة مما جعل وجوده مشجياً جداً ، لامتلائه بالسطحية ، والحيوية العصبية ، ومتحركاً جداً ، ومؤلماً بشكل حيواني وعابراً في العمق .

« النقيصة الشاذة »

« ذلك الموت الذي هو رفيقنا من الصباح
حتى المساء ، دون نوم ، الأصم كندم ،
قديم أو نقيصة شاذة »

الانتحار لدى «پاڤيز» ليس الحادث النهائي الذي لم يكن شيء يعلن عن حصوله، ولا المأساة التي أنهت وجوداً تخللته التقلبات ، وربما ليس الجواب المدروس ، المرمي في وجه العالم من قبل رجل يقول بعد الامعان ، كلا ! الانتحار لدى «پاڤيز» قالب ذابت فيه تجربته للأشياء ، ونوع من ثلم حفر مسبقاً في داخل خلاياه ، ومجرى النهر الذي تحدد تعرجاته الاتجاه وكمية التيار . وليس الانتحار نوعاً من أنواع الموت ، واختياراً للمنية ، بل هو طريقة للحياة ، والحكم بالعيش في طريقة ما .

وعندما كان في الثامنة عشرة من عمره سبق له في رسالة وجهها إلى «ماريو ستوراني» (Mario STURANI) أن تحدث عن قتل نفسه ، والإشارات إلى تلك الرغبة التي كانت تقاوم دائماً ، لا تكف عن الظهور في مراسلاته ويومياته ، تارة بشكل صلاة تكاد تكون لازمة ، نوعاً من

الخضوع لمصير مسبق ، يقول : « أشعر كأن طبلا في داخل رأسي ، أبي مات من السرطان ، وقد كان وقع مريضاً عندما أبصرت النور » ، وتارة أخرى تظهر بقوة تكشف عن الأزمة التي لم تكن فقط محاولة ، بل مباشرة تنفيذ . كما في قصيدته التي كتبها في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٧ والتي يذكر فيها أنه أطلق طلقة من مسدس في إحدى النزهات الليلية المنفردة ، غير أن رجفة الانفجار أحس بها كارتجافته الخاصة عندما سيسدد يوماً فوهة المسدس إلى صدغه . هل تلك الرواية خيال مجرد أو شهادة عيان ؟ من الأكيد أنه يتخلل تلك الرواية جزء من المرضية المستوحاة من العصر وميل لتقليد أدبي بقدر ما هو نفساني (أحد رفاقه في الكلية انتحر قبل قليل) وتذوق للاستعرائية ، ولكنه يؤكد لماريو ستوراني أن كل شيء صحيح في تلك القطعة ، وبعد ثلاثة أشهر ظهرت تلك الحقيقة في جملة من النثر لا شك في بداهتها : « ذلك يثير رعباً هائلا ، ذلك التخريب الدامي لدماغ لين ، ولعلبته .. » لقد قام نوعاً بتمثيلية هي من مميزات سنه ، غير أن سورة الحمى المراهقة قد أصبحت مرضاً مزمناً : القرار قد اتخذ ، ففي كانون الثاني سنة ١٩٣٨ اكتفى بأن يكتب باقتضاب إلى «اينزو مونفيرينـي» (Enzo Monferini): « لقد قمت بنصف محاولة انتحار بالغاز » .

وتلك الاعترافات القصيرة تقابل في اليوميات محاولات لتمجيد الانتحار ومحاولات من النقد الذاتي . فمن جهة ، وعلى دفعات ، يجهد «پاڤيز» نفسه لاعطاء أساس منطقي وخلقي لانجذابه نحو الموت . وما

دمنا كلنا سنزول ، وما دمنا جميعاً في خطر الموت في ظروف بائسة ، لماذا لا نختار بأنفسنا الوقت والمكان والوسيلة ؟ ولماذا لا نحاول استبدال اللامعنى للموت ، بعمل - هو الأخير في الحياة - له معنى وجدارة ؟ إن تحطيم الذات سيكون التعبير عن طموح سام يتجاوز كل طموح . يا له من حلم متكبر ؟ ولكن من جهة أخرى ، وفي أوقات أكثر صفاء يعترف «پاڤيز» بالزهو الذي يحدثه الانضمام إلى الموت لغايات تتعلق باللياقة الأرضية ، بينما الموت على العكس هو الذي لأسباب من السخرية ، يمد ظله منذ ولادتنا على حياتنا ويفسدها بكلمته ، فتحويل الموت إلى كلمة مثيرة للاعجاب عن النهاية يشكل بالتأكيد نوعاً من الخداع ، طالما من البديهي أن الموت يحول الوجود إلى أنه خطاب طويل من النزع . فالتعلق به ، أو عبادته تدمران الجسم والنفس ، وتعدلان الحساسية وانطلاقات الجسد والقلب ، وتصفعان الارادة ، وتنضبان ينابيع الطاقة . «وپاڤيز» في مداعبته لمشروع الانتحار لا يجمع شجاعته لاتمام أكثر التضحيات بطولة ، انه يتحمل تجربة تشتت ، تفتت بطيء وتدهور يستفحل تدريجياً لأنه يؤجل بدون انقطاع إلى الغد تنفيذ الضربة القاضية . وعليه أن يشعر بالراحة لهذا لأن ذلك التأجيل الذي يمنحه لنفسه إلى ما لا نهاية قد حفظه حياً ، لكنه في الواقع يقرأ فيه دليل الخوف ، ويكتشف فيه دليل الجبانة ، وهو يحتقر نفسه كمستقبل بقدر ما يحتقرها لاخفاقه في الهروب النهائي : « وما من شيء أكثر حقارة من حالة التفسخ الخلقي الذي تقود اليه فكرة - اعتياد فكرة - الانتحار .

فالمسؤولية والضمير ، والقوة كلها تتقاذفها الرياح وهي تطفو فوق ذلك البحر الميت ، تغرق ثم تعود عبثاً إلى السطح ، لعبة لأي تيار كان » (٦ تشرين الثاني ١٩٣٧) .

وهكذا ، فان سيرة حياة پاڤيز أبعد ما تكون متناسقه ببرهان من الارتفاع في كل مرة يجري فيها النضال مع الملاك الأسود ، بل هي تشكل على الأرجح سلسلة متتابعة من حالات الافلاس . المعركة نفسها تنكأ دائماً الجرح نفسه ، وتسيل دائماً الدم الفاسد نفسه ، كان «پاڤيز» يسير بشعور من الانهيار نحو نهاية من الجفاف يقول : « من الأفضل البقاء جامدين في زاوية شارع كرجل بائس، مرددين شيئاً ما لا يفهمه المارة ، محدقين بعيون مغلقة في ذلك السبات ، وفي تلك الهوة » (يقين « في ليلة عيد ») ، أو كما يقول في «اليوميات» بتاريخ ٢٩ آذار سنة ١٩٤٦ : « ذلك الاحساس بكوني في الزاوية (Cornerd) ، وفي نهاية المطاف ... لم أشعر به كما أشعر به في هذه الأصائل وهذه الأمسيات، الفراغ لاتحل محله أقل شعلة من الحياة ، أعرف أني لن أذهب إلى أبعد وأن كل شيء قد قيل حتى الآن » .

إن عمل الكاتب الأدبي ذاك ان نشاطه المهني الذي كان عليه أن يجعله وقد جعله محتفظاً بأنفه فوق الماء ،تلقى الضربات التي وجهها اليه هبوط الضغط وازدياد حدة المزاج المكفهر مما جعل «پاڤيز» يتم بصعوبة ما كان باشر به في وقت الانشراح . كان يعتبر من غير المحتمل أنه

« سرعان ما لا يشعر بنفسه منذ البداية » وذلك عندما يباشر في كتابة أحد مؤلفاته . كان يرثي للتشويه الذي تفرضه الانشغالات التقنية على اللهيب الأول لنار الانشراح ، ويقيس ابتذال الوسائل التعبيرية . والرعب من العقم كان يلاحقه . وصحيح أنه كان يجتاز غالباً أوقاتاً صعبة من الجفاف ، ونحو سنة ١٩٣٨ جف الشريان الشعري فيه . فلجأ إلى النثر . ولكن عندما تضعف طاقة النثر لديه فلأي قديس يلجأ حينئذ ولأية مهمة ينصرف ؟ كان الموت في نهاية حلبة السباق .

الموت ! نقول ونحن نمر مرور الكرام ،منحه «پاڤيز» لنفسه كوقت فراغ كأنه يحتفي بنفسه بذكراه الخاصة ، نظر إليه متأملا في مراة إحدى قصصه - بين النساء وحدهن - ذاكراً ممشى الفندق والباب الذي يفتح والحمالة التي تمر حاملة الجسد الميت ، المنتحرة الشابة،وهي نسخة طبق الأصل عن شخصه تبتعد،تختفي،بينما المشاهدة وهي نسخة أخرى ، « المرأة التي وصلت » تمتنع عن التدخل.ولنعد بضع ساعات إلى الوراء عندما لم يكن شيء قد تم بعد فان «پاڤيز» يتساءل : « بمن نفكر في تلك البرهة ؟ » .

قبل لم يعرف كيف يصمد للحاجة التي كان يشعر بها، بأن يشكو وأن يجعل الآخرين يشكون ، وأن يستجلب لنفسه الشفقة لكي يرفقها بالتهكم والسخرية فور أن يدرك تصرفه المثير للشفقة . « اللذة الكبرى التي أشعر بها هي لذة الرثاء لي » ولكنه يقول في مكان آخر :

« إنها تعزية جميلة عند تلقي تعازيك ».إنه ينصرف إلى تلك التمارين المتقطعة مع « شفقة على الذات مزعجة » ومع غضب من الاغتياب ، وحميا من شتم الذات ، ترن كلها صحيحاً وكذباً ، تحدياً من قبل تلميذ متأخر ، وادراكاً صحيحاً لعيوب طباعه . لست شيئاً آخر سوى« كومة رخوة من الحساسية المريضة » يقول معترفاً ، وفي يوم آخر يتابع : « ... عاجز ، حيي ، خامل ، قلق ، ضعيف ، نصف مجنون ».أو هو يقول بشكل أكثر إثارة :« جميع نزعاتي الفطرية للشر لم تكن سوى رقصة «برانل» (Bramle)[1] ، منفردة وتفالة خمر لا تلبث أن تُتَقيّأ » .

وهذا الاشمئزاز من ذاته الذي يشعر به يعود فيوجهه للآخرين وإلى المحيط الذي يعتقد أنه يتأرجح بين طياته ، وإلى الواقع الذي يحيط به ، وإلى المصير الماورائي للانسان ، لعجزه عن ايجاد الكلمات كما تلاحظ « ناتاليا جينزبورغ » التي تمكنه من ايصال متاعبه إلى الغير دون دموع ولا نحيب . كتبت تقول في كتابها : « الفضائل الصغيرة » :« إن ما ينقصنا حقيقة ، هو امكانية العلاقات الحرة والطبيعية بين الأفراد ، وهي تنقصنا إلى درجة أن البعض منا قتلوا أنفسهم لأنهم كانوا واعين لذلك الحرمان » .

لقد كانت تكمن في أعماق باڤيز ، رومانطيقية صبيانية ورمزية

---

(١) رقصة فرنسية في القرن الخامس عشر .

مريضة ، وانجذاب نحو المآزق وكانت كلها مستترة عن جميع الأنظار ومكبوتة دائماً وغير متجاوزة أبداً (بفتح الواو) وعبثاً حاول أن يظهر برأس رابط الجأش ، وأن يخفي هروبه إلى العالم الآخر في تخل عاقل ونتيجة تفكير (... مع الاصرار نفسه .. سأقوم برحلتي إلى عالم الأموات .. ».لقد سجل انتحاره،في الواقع ، انتصار الماضي على المستقبل ، والغريب الجديد على الموروث ، والكائن على المظهر ، وخلال كل حياته . وهذا جميل جداً بطريقة ما ، عارض ما يشعر به أنه كائن ، بالمصلح الذي يفرض على نفسه أن يصبحه أو الأمر الحاسم للواجب الخلقي أو الماركسي . وكل ذلك الكيان الأخلاقي الأدبي (الأخلاقي ؟) قد انهار يوماً.يقول : « كنت أعرف - وقد عرفت دائماً - أني كنت أتصرف كالسنجاب الذي يحسب أنه يتسلق بينا هو في الواقع لا يفعل شيئاً سوى الدوران في القفص ».

وإذا كانت المعنويات قد أصيبت بالهزيمة ، فمن الواجب التأكيد أن تلك الهزيمة قد عوضت بظهور شبح حقيقة ما . وبالاستيحاء المؤلم المتلاشي لشيء مقدس يكاد يكتشف نحت التكشيرات وتصنع خور عصبي (نوراستانيا Neurasthenie)ناشز . وذلك الانتحار يكشف عن فشل حياة ، والنكبة التي تنتظر كل حياة . ولكنه يشكل أيضاً الوفاة التي تعطي معنى لولادة سر - مؤخرة كل منظر ، ونواة كل شيء ، وأعجوبة كل شخص - التي تحاول الكتابات أن تقترب منها واكتشافها

بواسطة الخيار - الشبكة للنص ومن تحته دون أن تفقد شيئاً من الفضائل الارادية التي كان يتمتع بها «پاڤيز» اليقظ.

أوتاد على طريق أثر أدبي

« كل كاتب فجٍّ ، رتيبٌ بشكل رائع » « ليتاروتورا اميريكانا »
(Letteratura Americana)

لنبدأ بالمظاهر .

تبدو آثار « پاڤيز » الادبية من الخارج على عدة انواع ادبية باعتبار انها تقدمت خلال الزمن ، بحيث يمكن تقسيمها الى مراحل . وتظهر بمختلف المظاهر الظرفية والتاريخية .

في البدء ، تظهر المحاولات المستوحاة من ترجمات ما بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٢ ، التي تكملها فيما بعد المقالات السياسية - الثقافية ، والنصوص عن الاعجوبة . ثم تأتي قصائد سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٧ يضاف اليها الأشعار الأخيرة للفترات القصيرة المثمرة (١٩٤٥ و١٩٥٠) اما النثر الانشائي فيغطي كل مرحلة العمر الناضج ، معبراً عنه باليوميات الحميمة المسماة « مهنة الحياة » التي تمتد

من سنة ١٩٣٥ الى سنة ١٩٥٠ ، وبدرجة ادنى وبشكل اكثر ظرفية ؛ بالرسائل وبالتصاريح الصحفية . الخ ..

وفي ذلك النثر الانشائي نفسه تقطعات : اذ انه ينطلق من الرواية الموصوفة ريفية كما في : « من عندنا » مثلا ، الى الرواية الشبه - العالمية كما في « الشاطىء » او« بين النساء وحدهن » ، ومن صورة ابن الشعب الى صورة المثقف . وبسبب انحراف يساري في النظرة التي نظر فيها الكاتب الى نفسه في آخر حياته ، ظن « پاڤيز » ايضا انه كان لمجموع رواياته الحظ بأن تشكل نوعاً من الساغا[1] على طريقة الروايات - الانهار[2] المحبوبة جداً فيا بين الحربين : اي درس ما يمكن ان تكونه في المستقبل الحركة السرية المعادية للفاشستية (« السجن » ، « الرفيق ») والمقاومة (« البيت فوق التلال ») وما قبل المقاومة (« القمر والنيران ») . اما من وجهة النظر النوعية فان الأقاصيص او الروايات - كما الأشعار ايضا - ذات قيمة لا تعادل . وتحتل مستويات متفاوتة من الكمال . والآثار الأدبية تعكس الجهد ، والبطء والخطأ ، والالتواء والمبالغة في التوتر للحصول على اللهجة الشخصية الصحيحة - موسيقى صغيرة لاسلوب لا يمكن تقليده يشكل عنوان مجد « پاڤيز » الأكثر دقة . وهو ابعد من ان يدرك بالحس . وربما كان الاكثر جدية -

---

(١) الحكاية التاريخية ، او ميثولوجيا من البلدان السكندنافية « المعرب » .

(٢) رواية طويلة تستعرض حياة اسرة بجميع اجيالها « المعرب » .

ان تلك الاختبارات الفنية ، وتلك الاحداث الحياتية والسياسية ، وتلك الحالات الوسيطة لتعبير يبحث عن نفسه ، تحمل الينا شيئا قليلا - اقل مما عند كثيرين غيره على كل حال - .

وفي الواقع ، ان ابحاث البداية عن الشعر او الأدب الاميركي - التي ردت عليها فيا بعد ابحاث محاولين آخرين نشرها « پـاڤيز » في مجموعته عن العلوم الانسـانية - ليسـت سوى تحـديد وتحليل اوليين للأرض حيث ستنبت الكتابات الخيالية التي وضحت هكذا عملياتها الداخلية مسبقاً ونظرياً . كما شقت امام الفكر المبدع حقلاً مستقبلياً واسعاً من الانطلاق ، وصرحت عن مدى الكلمات . لقد لعبـت دور اعلان نية طموح ، وانبتت المقياس الذي سوف يجب أن تقاس على اساسه الآثار الأدبية . كتب « بافيز » الى « فيتوريني » مفـكراً دون شك في نفسه : « تاريخك ليس قفزة في الغيوم ، وانما مجابهة مع الأدب العالمي » .

وكذلك فان العروض التحليلية الواردة في « مهنة الحياة » ترافق يوماً بعد يوم تقريباً جهد الابداع ، وتشكل نشاطاً منفصلاً ، ووجهة نظر مختلفة عند « پاڤيز » - اعني نظرة من المؤلف نحو آثاره الأدبية - اقل مما هي صدى لتلك الآثار على المستوى الأكثر حميمية للكاتب - وبالتالي شيئاً مشاركاً في الجوهر تقريباً للانتاج الرومانطيقي مما يجعلنا

معرضين بسبب تلك التعليقات الى خطر الوقوع في التيه أكثر مما تؤدي بنا الى الوضوح .

ففي موضوع الانشاء الموزون « والهروب » المراقب نجد ان « جيد » (Gide) في كتابه : يوميات « مزيفي النقود » ، « وتوماس مان » (Thomas Mann) في يوميات « الدكتور فوستوس » (Faustus) ، يبزان « پاڤيز » بمئات الأميال ، ومن هنا وبشكل غريب ، نجدهما ربما اكثر صدقاً ، وان كانا اقل عفوية .

ورغم ما في تلك القفزة من صعوبة للشاعر فاننا لا نشاهد ابداً انفصالاً واضحاً بين القصائد والنثر عند « پاڤيز ». فالأمكنة ، والأشخاص ، والمواضيع ، والأهداف تبقى هي نفسها ، والوساوس نفسها تستمر ، والخمر القديمة تملأ الدنان الحديثة . وبالأخص لا يوجد في ذلك الحدث اي أثر لتحول الكاتب الى النثر باعتماده الكتابة النثرية . وبما ان مفهومه للعالم بقي اياه، فان العلاقات التي يقيمها هذا العالم مع الشكل الذي يعكسه لم تتبدل هي ايضاً . لم يكن هنالك أشياء جديدة وبتعبير أصح أشياء أكبر ، او اسلوب يظهر للوهلة الأولى أكثر خشونة . ولكن بما انه نظم شعراً - كما لو انه حول الصورة الى سرد - - ما هو في الاجمال مناقض لجوهر الشعر - فهو يروي كم لجأ الى النظم الشعري عن طريق تركيزه الأقصوصة في بعض الصور - القوالب - ، مما يجعل

مكان ذلك ، رغم الغزارة اللفظية ، في الاماكن المقابلة للانشاء الاستطرادي المنطقي . وان غنائيته وهي اكثر استتاراً بقليل مما هي في « العمل بتعب » مع بقائها على قدرها من عدم الحشمة والالحاح قد سالت في المزيج المعقد للأسلوب الركيك بسبب تحويله اللهجة المحكية او الخاصة الى نوع من النثر الفني . غير ان « پاڤيز » لم يكتب اطلاقاً روايات شعرية .

وأخيراً فان افضل تلك الروايات - « الشيطان فوق التلال » و « البيت فوق التلال » ، و « بين النساء وحدهن » و« القمر والنيران » اضافة الى بعض الأقاصيص المتفرقة ، لم تولد من اشعاع ، ومن انتقال فجائي ، ومن توجه جديد ، ومن بلوغ فجائي لدرجة اخرى من المجد . كلا ، ان التصميم قد نضج شيئاً فشيئاً الى ثمرة جميلة ، وهو امين لنموذج اعلى غير واضح ، مستمد من محاولات سابقة . وقد لزم مثلا « لپاڤيز » ، قبل ان يتمكن في « الشيطان فوق التلال » من ان يوصل لنا نوعاً من الشعور بالشيطانية الريفية والليلية، ان يتمرن في « ليلة العيد » وهي المقدمة الاصلية « للشاطىء » . واكتفي بهذا القدر . وكذلك فان « ارض المنفى الجديدة » تشكل القفزة الأولى التجريبية نحو « السجن » بينما ان « امانة » قد استعيدت لتستخدم كمطلع لرواية « الرفيق » . ان پاڤيز ، لم يكف مطلقاً عن ان يضع على نول المهنة النسج نفسه ذا الخلفيات العجيبة لكي يجود التنفيذ ويكمله ..

غير ان شيئين يستحقان الملاحظة . اولا : الامتلاك اليومي لسلاسة موفقة تسمح بتمازج عناصر متنافرة في الرواية ، وتزود التيار الانشائي بغرابة في الارتجال مراقبة جداً في الواقع . ثانياً : الانزلاق من الريفي الى العالمي ومن الذوق المتوحش لدى « شيروود انديرسون » (Sherwood Anderson) المنقول بشكل متسرع جداً ومنظم الى « بييمونت » (Piemont) . الى المقدس الممكن ملاحظته ربما لدى « توماس مان » وكاشراق اكثر مما هو ظلام في كثير من مناطق « اللانج » . ولكن ايضا الم يكن من الواجب ان يخرج « پاڤيز » من بعض الارتباك وان يشعر بثقة اكبر في نفسه وباهتمام اكثر في ان يكون عمله جيداً . ان شخصه يختبئ في عدم الوضوح . بينما في الأقاصيص الاكثر نجاحاً : اليومي يقنّع الرمز ، والرجل النكرة مهما كان يخفت صوت الاعتراف الذاتي، ثم ان الثقافة وتراث الفصاحة القديم المزين بالشعارات رغم بهرجاتها الريفية تجعلان « المحادثات مع يوكو » متحذلقة ، وموجزة في وقت معاً . وكذلك فان المسوخ والعذارى الرائعات في اذواق الهمجية العائدة الى آخر القرن حيث تقليد القديم يقوم مقام الغزل المستجدّ فيغلق افواههم ، ويمنع انتاجهم . والقصة ، والاعتراف بدلا من ان يتبادلا استخدام الشاشة نفسها يتنافسان في الاستقراء والوضوح يزدهر ، والعبارات المقتضبة ترن . وعلى الجو العجائبي ، كأنه اشعاع من الجوار ، او صدى تارة مستيقظ وتارة صامت ، حسب كفاءاتنا للرؤية ، او حدة سمعنا ، نحن القراء ، يمكن القول ان « پاڤيز » قد بدأ فجأة

يفضل علم الغيب . ودلفية[1] جديدة ينطق بايحاءات الآلهة ويفرض علينا الغازاً . وان ما كان لا يزال معلقاً في الخطاب ، يتسارع الى الظهور - أكثر مادياً ، ولكنه ليس اكثر وضوحاً مع ذلك - او انه على وضوح خادع . ويظهر ان « پاڤيز » الملبد الفكر بسبب ميله الشديد نحو « هوميروس وفرجيل »و بسبب وقوعه تحت سيطرة اطمئنان مزيف ناتج عن النجاح ، قد رجع الى التشبثات الفكرية المؤسفة العائدة الى عهد شبابه . فقد اعتبر تلك « المحادثات » كأغلى وصية له بعدما اعمته فضائله الخاصة . نفهم انه كتبها : وهي بتحويلها الاسطورة تضع النقاط على الحروف . ولكننا نتأسف انه أمل في تقليد « الأكزيجي مونومانتوم » (L'exegi monumentum) لهوراس ، بينما ان ثراءها الحقيقي والإرث الذي نقلته الينا ، يكمنان بشكل ظاهر في عدم الدقة وفي قرب حدوث الإعجاب المؤجل باستمرار،او المقاطع ، والاقتراب ببطء ، والتكرار ، والمراوحة ، والغمغمة .

والذكرى التي تتركها في نفوسنا قراءة « پاڤيز » ليست ذكرى الاقصوصة ذات العقدة ولا الرواية التي تستهدف التكيف ، والسمو الاجتماعي، اذ لا شيء فيه يميل نحو نتيجة،او النهاية السعيدة (happy end) ، او خاتمة نهائية ، فخمة ، او انزال جبل للستارة . ليس

---

(١) نسبة الى معبد « دلف » وهي نبية في ذلك المعبد تجترح المعجزات باسم الاله أبولون « المعرب » .

هنالك من شخص ينال ثواباً ، كما ان ليس من شخص ينال عقاباً .
لا وضع يتعقد ، ولا وضع تحل عقدته . الاستراحة لا توتر اعصابنا .
المال ، والنساء ، السلطة ؟ اوهام تفرغها من طعمها اللهجة الساخرة .
ليس من شخص وليس من مصير ينطلقان الى المقدمة بقوة . ليس من
رسم كامل ، وليس من اثر للمواجهات الدرامية ، والمشاهد من النوع
الرقيق المؤثر . والمشهد الواجب تنفيذه لا ينفذ ،ونكاد لا نستطيع ان
نتكلم عن « المشاهد المصورة » . وان سرد رواية من روايات « پاڤيز »
والمحافظة على لحمتها فيهما شيء من السخرية لفرط ما يحتل الـذي
سيحدث مكانا ثانويا . ليس من توسع لا في الحيز ولا في الزمن . وان
حدثاً وحيداً مزدوجاً من التركيز ، والشفافية المتقدمين تدريجياً يتم وحده في
الجمود تحت طبقات وطبقات من الكلمات .

مواضيع ذات تنوعات

« راكعاً على ركبتيه ، عانق الأرض ، كما لو كانت امرأة ، وتعرف ان تتكلم »

غيرة ٢

لنحاول حل اللغة ، الاسلوب .

قبل كل شيء ، هناك التسكّع ، الذي انصرف اليه « پاڤيز ، بنفسه على ارصفة « تورينو » وعلى طرقات « سانتو ستيفانو بلباو » . هناك الغانيات اللواتي يصيبهن الملل في البيت فيخرجن الى الشارع ويصعدن في المدينة أزواجاً يلتقين شباناً ، يتعارفون ، يذهبون معاً الى السينما ، بعض الأمكنة ترتدي أهمية ، مثلاً ، موقف القطار الكهربائي حيث تتم لقاءات المواعيد ، وحيث يتفرقون . المقهى المظلم ، المفعم بالدخان الذي من خلال زجاجه تلقي العاشقات نظرة (ليس هناك ، انه هناك ، انه مع اخرى) ، قبل ان يصعدن الى محترف الرسام ، حيث الباب تارة مغلق ولا يفتح احد ، ومع ذلك يوجد احد في الداخل ، وتارة اخرى مفتوح والقاعة فارغة . وبعض الأحيان يتناولون غداء خفيفاً جماعات ،

فينتقلون من السرير الى النافذة ، ومن المنضدة الى السجادة الممدودة على الأرض . وتتجدد المطاردات - اللقاءات كالتي تتم في الشارع بين الذكور والاناث . تلك هي اللذات التي يدعو اليها « الصيف الجميل » .

الفتيات جبانات ، فهن خائفات . لديهن شيء يدافعن عنه دون ان يعرفن جيداً ما هو . اما الفتيان فهم أكثر جرأة ولديهم شيء يغزونه دون ان يعرفوا ايضا ما هو . وهم يرتادون المقاهي الصغيرة السيئة السمعة ، ويلازمون ضفتي النهر . وفجأة وعلى اثر لقاء يتم صدفة ، يمتطون المراكب في رحلة غريبة ، في ظلام الليل ، خلال التلال ، لا يعرفون جيداً اين ومع من يوجدون . هلا يعرفون ذلك ابداً ؟ هل الى دير التيلم (The'leme) او الى الجحيم ؟ ان « الشيطان المهذب » فوق التلال لن يكشف لنا اطلاقاً عمق شخصيته . يحدثون ضجة ، ويتبادلون بعض الأحاديث المقهقهة العميقة ثم فجأة تنطلق صرخة حادة حنونة ، تشبه مواء قط حقيقياً . ثم يرحلون من جديد عشوائياً ويسقطون في صالة رقص ، فهذا يحتسي الخمرة ، وذاك يرقص . والمكان الشبيه بالبرية التي كانت منذ وقت مضى ساحة لقاء ، فريسة اثارة معكرة فهو مملوء بالأفخاخ والهجمات المخاتلة ، والخطط المظلمة ، انها حرب مقنّعة .

ان تورينو في الحقيقة ، مكان مناسب لذلك النوع من النزهة كآبة في النفس ، ومزح زائد ، ونفحة موسيقية ثم يأتي الرحيل نحو

الأودية العالية من جبال « الألـب » ، او الشواطـئ المنخفضـة من « ليغوريا » (Ligurie) . وفي كل مكان فوق الأعالي القريبة من « سوبرغا » (Superga) او الواقعة ما وراء « اللانج » نرى بيوتاً ، وقرى من اقعر الأجيال . وأراضي محروثة تنتظر ابن المدينة العربيد ، والغلام الحائر واللاجئ ، والنصير .

ذلك لأن الحرب العالمية الأخيرة قد منحت الذين طار منهم شبابهم عبثاً ، الفرصة للقيام برحلات ذهاب واياب كئيبة من المدينة المضروبة بالقنابل الى الغابة ، ومن كوخ الى كوخ ، ومن مزرعة الى مزرعة بحثاً عن مخبـأ . وعجـاج من حالات الهـرب والمواكب ، والهجمات والاعتداءات والسفالات شبيهة بعبادة المراهقة الهستيرية . وتعيد اليك الذكرى ان الأمر كان دائماً كذلك ، حتى في اكثر الأيام هدوءاً وفي اكثر الأماكن نزاهة ، كالطريق الواقع مثلاً بـين « كانيلي » (Canelli) « وسانتوستيفانو » حيث لا ينقطـع قرويو الجـوار عن اجتيازه بحجـة الذهاب الى القداس ، او القيام بدورة في السوق غير خالين من افكار مسبقة سوداء ...

حسب القصة المروية لنا ، مدينية كانت ام ريفية نجـد الأسـود والأبيض مسيطرين . والضاحية مرسومة في الأصيل والأفضـلية ليوم الأحد ، ومنها ينبعـث نور مشـع قوي ، يرافقـه الشعـور بالفـراغ ، والصمت والضجر ، وعدم نفع المشي ، والكلام والتمدد على السرير ،

« التعب الذي لا ينتهي » والجهد المبذول للبقاء على قيد الحياة من ساعة الى اخرى ، ورؤية الم الآخرين ، « الألم البائس » المسئم كذباب الصيف » . الطعام يقتصر على وجبات خفيفة يتم تناولها بسرعة ووقوفاً ، والخمر تبقى في المعدة . وذاك يعود ايضاً ورغم كل شيء ، الى ان انتظارا غامضاً يضغط على أحشائك .

اما التلة فتؤخذ في المساء وفي الليل : ظلمات او ضوء قمر ،شيء من التوتر يخيم ، وحلم غير واقعي . نلاحظ أصواتاً غير واضحة وأزيز دواليب ، وضربات سياط . وثمالة تجتاحك في وقت واحد مع خوف يأخذ بتلابيبك . تهديدات تحوم ، ووعود غير دقيقة تطفو . يشعر الانسان بنفسه ضعيفاً ومستفزاً . وهو على قيد انملة من ضياع محتوم ، وعلى عتبة الغرابة . يتنقلون بدون سبب ، وتلمساً ، الخمور تسيل ، والقيثار يرن . الواحد يلهب الحواس ، ويثير الخيال والآخر يهدهد مشاعر الحنين ، ويجلدها حتى باللحن الرتيب الحاد . انها البرهة المرتعشة الهامة المتصاعدة من رومانطيقية لومباردية بعيدة : تسبق « السبت في القرية » حيث اللذة المقبلة سبق لها ان مضت قبل تذوقها ، لأن كل اشباع لها اذا اريد لها ان تبقى الرغبة موجودة . والتماسها مستمراً ، قد منع عليها الى الأبد ، « عطلات شهر آب » و « ليالي العيد » التي يجب ان لا يكون لها غد .

وبتأثير الف تفريغ نفسي غددي ، تظهر معالم منظر خارجي ، مزدوج ، ويحدث تحول مزدوج للطبيعة .

من جهة ، الأرض تجعل نفسها جسداً ويستطيع الرسام ان يتحدث عن معالجة التلة « كامرأة ممددة وثدياها مكشوفان للشمس ، وان يمنحها رشاقة وعبيرا انثويين » انها تنتفخ بنتوءات لذيذة - mammelacia mamnella, Mammelone, من « من عندنا » - وهي تتوج تلك الأعشاش من الأثداء ذات الحلمات النافرة . وهي تنخسف في انحناءات لطيفة ، وطيات مشعثة . انها محروثة ، ومحمية . مستلقية على الأفق مثل : « جبارة بودلير » انها الغاوية المغرية التي تمنع نفسها . وحامية اللذات العابرة التي تنتهب تحت اشجارها الصنوبرية .

ومن جهة اخرى ، الماء يدعو الى التعرّي : ماء المسابح في نهر « البو » في ضواحي تورينو ، وماء الاماكن الحميمة الملامسة لضفة مستنقع في منتصف الأدغال . على النهر ينزلق القارب في قعره امرأة مستلقية . والرجل يجدف وينظر اليها . ويشتهيها عندما يراها هكذا معروضة ويكرهها ويحتقرها مسبقاً ؛ وبعد ذلك على الشاطىء تهرب بين الأشجار ، وتسمع في كل مكان تقريباً ضحكات ونداءات وصرخات . في الغابة : المستنقع المبيض ينفتح كعين ، والعشاق الذين لا تزال اجسادهم بيضاء هم ايضا ينزعون ثيابهم فرحين خجلين ، مقدمين انفسهم كما في استعراض ، منطوين على انفسهم دورياً .

القلق والخوف يثقلان تلك المواعيد السرية لجسدين مهيئين للانجراح طافيين في الظل الأزرق للأوراق .

من القصائد الأولى ، حتى الأقاصيص الأخيرة ، تتوضح تلك المشاهد وتتحول الى افكار ثابتة ، او تمكث مهما كان الأمر ، اذا اغفلت خفية في المؤخرة . او كما في صندوق سري من رجع الصدى . وتلك الطبيعة المحولة الى الجنس بتؤدة ، تخنق ، وتجعل النـاس والحيوانـات فجأة مجانين ، وفجأة يتفجر كل شيء الى جريمة ، الى اغتصاب الى مَنِيٍّ منتشر . والى جرح مفتـوح ، في جو منفلـت من القيود هائـج من الطوفان ، والاعصار او التوتر الصيفي ، مملوء بالغبار ملتهب جداً ، في الأيام الأخيرة من الحصاد . انها ضربة المذراة تخترق حلق المرأة من جهة الى جهة ، وتريق الدم بأقصى انبجاسـه(من عندنا) . انها اعمال العنف على ظهر جرافة يمارسها ازعران قصيران على شخص فتاة لم يصطاداها من نهر« البو» الا لكي يعودا فيرمياها في الماء بعدما نزفت بوفرة (عاصفة صيف) .

غير اننا نخطئ ، اذا تخيلنا ، ان ذلك الاطار ، وذلك الاخراج لم يكونا الا لتحريك آلية عقدة تكتمل بدراما قروية ، او باعمال دنيئة متعددة . فبطل القصيدة او الأقصوصة ، قبل ان يصل الى مثل تلك النهايات ، يثير في وسط جميع تلك المعالم قضية الحياة . حياة الآخرين كما حياته الخاصة ويشعر بالحاجة الى ان يركز نفسه ، وان يحاول ان يندمج في داخل تلك الغابة الاجتماعية والفضائية من الرموز .

الانسان في الواقع يشعر بانه غير لائق ، وهو عارٍ كدودة ،غارق في

وحدته القدسية في الغابة او في الماء . غيرانه ،استجابةً لمتطلبات البيئة الصيفية ، يتعرّى من ثيابه آملاً ان يذوب في المجموع . وبالعكس انه يشعر بان الطبيعة تفرغ من الوضع الطبيعي - حسب التعبير الخاص - الذي يظهر فيه تجاهها ، وبانها ترفض وتدين تلك التقدمة التي هي على تلك الدرجة من عدم الحياء .

« الأشجار ذات النظرة
« الجامدة ، والجذوع . والأدغال هي على السواء اعين
« لجسم شاحب ، وضعيف ، يرتجف .

الأرض التي ألهبت العاشقين ، والتي حرّكت في كل مكان امام انظارهم البريق الجنسي ، تتركهم وقت الفعل ، وتحيطهم بالاعاقة ، وتسمهم بخاتم الفضيحة والذبول : « اما الآن وبعدما رأى كل من « غيدو » (Guido) وهي احدهما الآخر عارياً ، فان كل شيء بدا له مختلفاً » هل يعود ذلك الى انهما فسرا تفسيراً غير جيد ايحاء الغابات المرعب ؟ او تبعا بشكل سيّئ دافع الغريزة ؟ كان عليه لاستهلاك اتحاد الجسدين الذي كان عليه ان يضعهما في تناسق مع البيئة ، ويصالحهما مع العالم ، تأثير معاكس اذ اوجد تنافراً وطرح على الفكر اسئلة لا يمكن حلها عن علاقات الحب مع نفسه ودوره في الكون . فإرواء الغليل يفتح قضية لأنه بدون شك غير كامل ، متعثر بسبب الكبت .

وكذلك فان البطل الپاڤيزي ، عندما يركض في السرية وراء

سرابه . لا يكتشف الوحدة بل التقطع - والتناوب ايضاً - للمحروث وغير المحروث ، وللرقة التي غالباً ما تنقصه والشراسة . المحروث هو كل ما يخص الفلاح ، ونتاج عمله ، وصنع يديه : الأرض المسكونة منذ عهد غير محدد ، المعدلة بما حمله اليها من حضارة هو القانون الذي يدل على سيطرة اخلاق معينة . وغير المحروث هو ما لا يخص احداً ، ولا الله ، ولا الآلهة : عبارة عن اماكن وعرة . وادغال لم يدخلها الانسان ، ويحولها الى اراضٍ منتجة ، انما حيث يتلبد متحملاً فتنة تلك التشابكات فرحاً بذلك العقم الشرس ، الشديد . ففيها تأخذ حيوانيته وانحرافه مداهما. اباحيته فيها كاملة لأنه من تلك الهمجية . ينطلق في جو الخيال اللامتناهي والاسطورة .

سفوح « اللانبج » المغروسة بالكروم هي التي اوحت لـ « بافيز » اول تلك المشاهد والغلاظة المدنية والاليفة للأرض المنتجة . اماكن يحترمها نتيجة تقاليد السلف ، وحباً بالوصفاء ، والعمال . غير انه اشتم منها ايضاً وربما كره ما تبقى من اثر النظام الأبوي . هناك يعيشون ليجمعوا ويعيشون من احتياطيّهم ، والمغامرة والتبذير ليسا الا خطيئتين من خطايا الشبيبة . يستحقان بحق المسامحة من قبل البالغين . وبعد ذلك كان من اللازم على هؤلاء الغلمان ان يصطفوا كصفوف اشجار الكرمة او كعصي ركائز اللوبيا . اما الأراضي الموحشة فهي تستتر متراجعة بين الوديان الملتوية وشعاب الجبال : مصارف المدن الغاضبة . انها تشكل فرصاً للاختباء ، والسكر ، ومرقداً في حال الاستعجال : انها قصة اولاد

الذوات الذين ينظر اليهم « پاڤيز » من بعيد نظرة تحد من ولد متفوق جنسياً واجتماعياً . ولكن ليس بدون حسد ، لأن تلك الشيطنات تشكل ايضا التعبير عن النظام ، عن المعارضة الصبوية ، والتصميم غير الماهر ، المتذبذب ، القلق ، المتقزز بشكل خطر من الطقوس الساذجة للجريمة والقتل الارادي .

كل ذلك وجده ايضا وتأمله في « فيكو » (Vico) وقرأه واعاد قراءته ، وربما اطلع عليه وحلله في « فرويد » « وجونغ » « وتوماس مان » . علم اجتماع (سوسيولوجيا) وتحليل نفساني (بسيكولوجيا) معاشتان في الحقول . وفلسفة ذات مظهر ريفي قد دخلت بواسطته الى الأدب .

أي طريق يصير اختياره ؟ المراهقون في « الشيطان فوق التلال » يترددون ، ويتركون قيادهم للصدفة ولاهوائهم ذاهبين من سفح الى آخر في الجبل ، مسحورين بالظلمات ، والعنف ، والملل ، الذي يخفي العيوب ولكنهم ضعفاء ومرتبكون جداً كي يضحوا في سبيل تلك « الشيطنة » بالذكرى ، وبالجاذبية المكبوتة نحو الراحة التي يوفرها العيش الثقافي البورجوازي ... « يثير استنكارك ان احداً ما يأخذ الكوكو..... (Cocö) ، وحول ذلك تضحك اذا تكلموا عن الخطيئة » . إنهم ينتظرون طويلاً امام باب امرأة مثيرة ويستثيرون انفسهم عبثاً على عتبة النضوج . ولا يملكون الشجاعة لاجتيازها . (والانتحار دائماً هناك

لكي يؤمن لك وسيلة التخلص) . وذلك الحب الذي كان ابعدهـم ، عراة ، عن الخلق لا يتمكن ابداً من زجهم في مجتمع ، وتوجيههم على طريق مصير حقيقي . والسن لا يؤثـر بشيء في ذلك لأن « كليليا » (Clelia) في « بين النساء وحدهن » لا تشعر بانها ساكنة للمدينة مقبولة ومرضي عنها ، مجذرة في تربة خصبة رغم ما بلغته من نجاح ، ورغم انها اصبحت شخصية هامة في صفوف النخبة التورينوية . فهي كطفلة كبيرة تحولت نحو المنتحرة الشابة التي فوجئـت بهـا في ممشى الفندق ملقاة على حمالة . الفشل كان حصتها ايضاً .

واخيراً يظهر ان التاريخ قد اقترح طريقـة مثلى للالتـزام. فمـن طريقة ، ملأى بالسخرية بالنسبة لـ« باڤيز »، لأنها من مدينية تأملية كما كانت ، ومن هدف للمناقشات المجردة تسحق الشاعر الشاب ، تحولت ابتداء من سنة ١٩٤٣ ، الى ريفية ومتكاملة . لقد استولت على مفتاح الريف وسجلت في العصر احداث المقاومة . امرأة اسمها « كات » (Cate) ، في « البيت فوق التلال » يمكن ان تعتبر مثل بياتريس (Beatrice) بالنسبة الى الراوي وان تجعله يتحمل مسؤوليةالأبوة ،في وقت معاً،مع مسؤولية الثورة ضد الآباء المزيفين في الأمة ، وان تقدم له بالاجمال جميع اسباب الترف .وبينما ابنية تورينو تنهار تحت القنابل تقدم له مرقداً تحت النجوم في ادغال زمن الشباب التي وجدها من جديد .

غير ان تلك المناسبة المضاعفة ، للتخلي عن العشيقة القديمة والجو

ذي عاش فيه قبلاً ، لم يحسن انتهازها . يعترف (Corrado) ، راوي : « بالاجمال كنت اطلب سباتاً وتخديراً ، والتأكد من إنـي ستطيع ان البث مختبئاً . لم أكن اطلب سلام العالم . بل كنت اطلب سلامي انا . كنت اريد ان اكون حتى استطيع الخلاص » وفي مقطع خر يؤكد كما يلي : « ان تكون احداً ، شيء آخر ، ليس لديك فكرة عنه ، يلزم الحظ والشجاعة ، والارادة . ولا سيما الشجاعـة ، شجاعـة البقاء وحيداً كما لو ان الآخرين لم يكونوا موجودين ، والتفكير فقط بما تفعل . وعدم الانزعاج اذا لم يبال الناس . يجب انتظار سنوات : وربما يأتي الموت قبل ذلك . وهكذا بعد الموت ومع قليل من الحظ تصبـح احداً - فتتمتم كات (Cate) مجيبة : « انت ابداً ما انـت ، انـك تصطنع جيلاً من الأشياء كيما لا تصنعها » .

وما يستحق التقدير لدى « پاڤيز » انه ينظر الى الحب الذي يحرض على التشرد ، وعلى الحركة المخاطرة ، وعلى العدوان الكائن وهـي ما تشكل خميرة الفوضى ينظر اليه دائماً من منظار مصالحة مرجوة مع المرأة او المجتمع : كنار تلين الصلابة الذاتية ، والارادة السيئة لدى الغير ، ينظر اليه لا كانتفاضة بل كشعلة لمشاركة متطورة . « پاڤيز » لم يكن من أجل لا شيء ابن ارض محروثة ، وثقافة مدنية مهيئة خلال الاجيال لتوحيد الغرائز في قناة نحو الزواج وانشاء اسرة وبيت ، كما لم يكن من أجل لاشيء شاعر رثاء منغلقاً جداً .

وانما ما هو مؤثر لديه ، ان تلك الامنية لا تتحقق ابداً وان جهوده لم تتوّج ابداً بالنجاح ، ولأنه اصبح على وشك الخضوع لنير التقاليد فان الحب بعيد عن غبطة الهرب واستهتار الشهالات الربيعية وانما ضمن الوحدة المتقشفة واليائسة لـ (dustilite) ، اي جموده المصاب بالتصلب ، ان الحب يبقى المعذب الاكبر ، محطم الذات والآخرين ، وقد جعل من « پاڤيز » نهائياً الرجل الذي لا يمكن الانتقاص منه ، ولا يمكن استعادته ، الرجل الهامشي الذي رغب كثيراً في ان لا يكونه ، بينما هو مندفع مسرور لأن يصبحه .

« من الطفولة »

« القلق الذي شعروا به ، لوجودهم متجسدين مقدماً في حركات الطفولة وكلماتها التي لا يمكن اصلاحها » .

(٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٣٧)

يهدف « پاڤيز » الى ان يكون شعره شيئاً ما معاشاً . فهو يتناول دائماً تقريباً شيئاً مروياً ، ومنظوراً الا اننا نتقدم حتى الأسكفة ، ولكننا لا نتجاوزها . نتنشق روائح الجوار ، ونستنشم غير المألوف ، ولكننا اذا وقعنا في مأزق ، لا ننطلق الى البحث عن معرفة السبب . اما اذا اقتربنا من نافذة فهناك الليل . هناك ضوء القمر والتلال لا تشبه ما كانته في النهار . لقد تغير جوهرها ، وربما معناها ايضاً « ولكن ما الفائدة من التأكد ؟ محاولة ان نصبح ... يكفي . لا يتحرك احد . وحدها العين ترى ، في الوقت الذي ترتجف فيه الانوف لا يطلب من الحياة شيئاً سوى الانصراف الى التأمل في الذات ، والشعور بالذات نحن الآخرين ابناء البرية قد جبلنا هكذا ، نحب النظر من فوق السياج لا اجتيازه » .

بالاجمال ، تحب اشخاصه السجن ، ففي الرواية التي تحمل حقاً هذه الكلمة كعنوان نجد ان « ستيفانو » الموضوع تحت الاقامة المراقبة ، لا يحب التمتع بالهواء الطلق الا من خلال باب غرفته ، متمسكاً فقط بالبقاء بمحاذاة الحرية ، حتى إذا قيل له : « تخلص ! » لا يلجأ للهرب دون شك .

ذلك هو البطل « الپاڤيزي » دائماً يبدو كمشاهد. فالراوي في « من عندنا » يرافق « تالينو » (Talino) الى البرية دون ان يعرف هو نفسه الى اين يذهب . ودون ان يفهم ما يجتذب رفيقه هناك . فاذا وصل ، لا يدرك ايضاً ما يحدث تحت انظاره حتى عندما يشعر بانه اخذ في حبائل قضية غامضة . وحتى لو كان مشتركاً فيها ببساطة انه لا يتوقع شيئاً مسبقاً ، ولا يريد شيئاً ، ويحضر عاجزاً تفكك جماعة لم ينضم اليها اطلاقاً . ويظهر الشيء كأنه تجسيد مسبق للنهاية التي هي حتمية الى حد ان احداً لا يستطيع شيئاً . نهاية ابنتين للسيد « ماتيو » (Matteo) في « القمر والنيران » . والصورة نفسها تتكرر مع « الشيطان فوق التلال » حيث المدعوون الشبان الثلاثة من قبل « غريبّو » (Greppo) : ليسوا سوى اشخاص ثانويين يدورون حول الفيلاّ : حرم التبذير البورجوازي ، والانحلال العصري . وهم منبهرون يحرقون اجنحتهم في ذلك اللهيب . يلعقون ما تبقى من حثالة في كؤوس العربدة والسكر . ملصقين عيونهم او آذانهم على ثقب قفل ، مادين اللسان بين الأسنان ملطخين برشاش الفضيحة ، ورغم ذلك لن

يكفوا عن التجسس عليها ، واشتهائها . ورغم الظواهر نجد الشيء نفسه في « البيت فوق التلال » حيث بطل الرواية المنعزل المتجوّل في الغابات ، يتبعه كلب عن كثب . يلتقي صدفة بجماعة من الناس يتحدثون ويشربون الخمرة فيختلط معهم ويجد من جديد بينهم عشيقة قديمة له ، كان قد اولدها طفلاً ، وذلك الطفل كان هناك فيعقد صداقة معه . لكنه لا يشاطر هؤلاء الناس مصيرهم . وهو ليس مأخوذاً باي واحد من تلك المشاعر الجمة من الكره التي تميز زمن الحرب . وانضمامه الى الجماعة لم يكن عائداً الى اندفاعه الذاتي اذ ان الحيرة المتناسقة في الشخصية اقوى من سخرية القدر . لقد حصل خليط موقت دون امتزاج .

البطل الپاڤيزي يفاجئ تصرفات ، واصواتا ، وعبارات : انه أذن تتنقّل هناك ، وعين ترود . « وجينا » الصغيرة (Ginia) كان سبق لها ان قالت في « الصيف الجميل » انه « سيكون انيقاً ان تراقب ، مختبئة هناك خفية عن الجميع ، احداً يظن نفسه وحيداً في الغرفة » البطل يأتي ويروح ، على طول حدود لا يستطيع اختراقها . وان نهاية التدرب ، والدخول الى المجتمع وبلوغ سن الكمال ، النضوج الذي يقول عنه« پاڤيز » :انه كل شيء غير متاحة له ، ممنوعة عنه . لنتذكر تلك الصرخة في احدى رسائل الكاتب الى استاذه القديم « اوغستومونتي » (Augusto Monti) : « لا استطيع ان ارمي نفسي في حمأة الحياة ، لا استطيع ! » ، وذلك الاعتراف من قبل رسم ذاتي من التحليل

النفسي الموجه الى « فرناندوا پيڤانو »« انه لا يتوصل الى اعتبار وجوده إلا كمشهد تمثيلي جبّار يمثله لنفسه » . انه مشاهد ومؤرخ . وإذا كانت الأرض الموعودة للغير المثمر سراباً ، لنقم إذن بنصف دورة ونرجع أدراجنا إلى الماضي ، لنعد إلى فردوس الطفولة . مما لا يشكل على الأقل خداعاً ، لأننا نولد أطفالاً . ولا نجهد أنفسنا لنكونهم . حتى إذا كبرنا ، أصبح من المستحيل أن ننكر ان الطفولة لم تُعَش .

البطل « البافيزي » احد يعود . كتب في مطلع « مهنة الحياة « اذا كان هنالك من صورة في قصائدي ، فهي صورة من هرب من بيته ، وعاد بفرح الى قريته الصغيرة بعدما رأى من جميع الألوان » . ذلك التصرف بالاجمال لا يستحق اي لوم . اذ لا احد ، على حد علمي ، قد لام « دوبيلّي » (Du Bellay) لتفضيله « لـيري » (Leré) الصغيرة على « روما » ، ولاختياره العيش فيها ، « بقية عمره » . اما بالنسبة الى « پاڤيز » فاننا نلاحظ ان تلك العودة تتم في سياق الروايات الثلاث التي كتبها في المرحلة الأخيرة ، والتي تشكل بمجموعها لائحة ، ومحضراً للفشل . في البدء هنالك عودة « كليليا » (Clelia) الى« تورينو » ، وزيارتها البيت الذي رأت النور فيه ، في « بين النساء وحدهن » وما يخفي نجاحها المهني ، ما يتملكها من الحيرة . غير انه من المستغرب ان « پاڤيز » لم يتمكن من الظهور الا قليلا ، تحت خطوط تلك المرأة ، اذ نراه يقلب النظام المعتاد للأشياء ، ويبحث عن رفيقته المحبوبة مع فتيات « الصيف الجميل » . ثم رحلة

« كورّادو » في « البيت فوق التلال » من نقطة الى اخرى مقطعتين على السماء ، ومن شجرة سرو الى كنيسة ، حتى يصل الى الملجأ النهائي . والطفل « دينو » (Dino) بعد انفصاله عن « كات »،والاخرون بعد قطع العلاقات كي تستخدم عبارة او مفهوماً تستلـزمها لسرية . اما « كورّادو » فقد انزلق عاموديا اذ خاف من العنف . وربما خاف من ان يقتل (فتح الياء) أكثر من خوفه من ان يقتل ، (بضم الياء) ، خشي أن يرى نفسه أباً ، اي خشي من ان يكون منح الحياة ،وأبـى ان يتحمل المسؤولية في ذلك . صديق ! رغب جداً في ان يكونه اما اب ! العلاقة الحميمة مع الموت ، واحتمال ان يحيا بنفسه ، ثم احتمال ان يحيا بعد ذلك في الغبر ، قد القى كل ذلك الرعب في نفسه . اصبح لا يستطيع التقدم الى امام ، بل اضطر ان يتقهقر ، وان يرجع على عقبيه ، وان يأوي الى البرية ، وان يعود بسرية اكبر ، الى وضعية الغلام الدعموص التي لم يتمكن من تجاوزها ابداً ، ومن رفضها . ويعترف « كورّادو » قائلا برقة لكنها ترن في ذاكرة « پاڤيز » الشاعر كأنها التأبين : « اشعر انـي عشـت في عزلـة بسيطـة وطويلـة ، في عطـل تافهـة على طريقة غلام يلعب بتخبئة نفسه فيدخل دغلاً فيرتاح لذلك ويتأمل السماء من بين الاوراق الملتفة ، وينتهي به الامر الى ان ينسى الخروج منه ».واخيرا « القمر والنيران » تختصر الهزيمتين الاخريين اللتين سبق ان ذكرناهما : المدنية والعائلية ، وتجمعهما في نص طويل وداعي يجمع كما من فوق قمة ، بانوراما واسعة جدا هي صدى نشـاط بعيد ، فيه سمعـا

اللغيط (مبعد ايضا) في اثناء قيامه به وتصلب . والذكرى المارة ببطء لطفولة تبلغ هنا مدى رواية حقيقية ، الجمال الاخاذ المثير لعصر ، الانفجار الوحشي لحرب تركت كثيراً من الآثار ، والحريق ، والدم ، وانفتاح جروح معنوية لا يمكن شفاؤها . ولماذا كل ذلك ؟ وما نفعه ؟ ان تلك العودة النهائية ليست فقط نتيجة هزيمة حصلت هناك ، في الحياة الناضجة : انها بحد ذاتها انهيار ، رغم تلك الظلال البالية لنساء هنا وهناك ، وحضور الصديق « نوتو » (Nuto) لأن الماضي المطلوب صحراء مقفرة . الوحدة والاختفاء . كل شيء خطأ ، اومتحول الكيان : ليس فقط خارج الذي يتذكر ، بل ايضا في داخله . « ما بقي يشبه مكانا غداة السوق . يشبه كرمة بعد القطاف ، او كان يعود وحيداً الى المطعم بعدما يتركك احدهم فجأة » وبعد ذلك : « اني اعود من بعيد جداً ولم أكن-ابداً من هذا البيت ، لم اكن اطلاقاً مثل « سينتو » (Cinto) ، العالم قد غيرني » .

تلك العودة الى الطفولة تستحق انتباهاً خاصاً جداً . فمن الخطأ ان نرى فيها الفرح بالذكرى بعد اتمام المهمة والراحة المستحقة للطهارة المستعادة ، او عاطفة الحنين الى كل ذلك . كما ان الامر لا يتناول ايضا الذكرى « البروستية »[1] (Proust) التي لا تقاوم واللعبة مع الزمن

---

(١) نسبة إلى بروست (مارسيل) كاتب فرنسي ولد في باريس (١٨٧١ - ١٩٢٢) . مؤلف رواية : « بحثاً عن الوقت الضائع » عرض فيها ذكرياته الخاصة وشرح بمهارة فائقة مشاعره ومشاعر الآخرين الذين عاشرهم . وقد كان لهذه الرواية تأثير كبير « المعرب » .

وانعدام الزمنية التي تضمن بعث الكمال في هالة من الأعجوبة الشعرية . إذ ان الأشياء أكثر تعقيداً من ذلك .

قبل كل شيء ، تلك الطفولة لم تعش مرة اخرى . بل كوفئت يعني انها ادركت من مسافة ، وبالتالي حوكمت وجرى التعليق عليها اكثر مما شعر بها . وتمتد مسافة بين الذي يفكر ، والشيء الذي يفكر فيه - زمن يمضي او استحالة الاتصال - وتلك المسافة تشكل في وقت معاً عائقاً ، وينبوعاً للاجتذاب . وهذا ما جعل من « پاڤيز » عاجزاً وشاعر الحزن . وكاتباً لا يستوحي سوى الألم والعذاب من انه لا يستطيع بلوغ ما يصبو اليه . لا وعي اوائل العمر ، هو لا يملكه ابداً ولا يستفيد منه اطلاقاً ، وهو يعرف ذلك . لا يمكننا ان نعود فنجتاز تلك الحدود بعدما نكون قد اجتزناها مرة ،والعيون المنزوعة جفونها لا تغمض . « وماذا تقول برجل سليم يقسم لك انه يجهل الاشمئزاز ؟ - تقول انه رجل لمايكتمل ،انه لا يزال طفلاً » . (محادثات مع لوكو) ، لكن تلك الاستحالة نفسها ربما كانت في اصل اللمعان اللطيف الطعم المكتشف للثمرة المفقودة . وبالتأكيد ايضا في اصل التأثير المضني ، والفتنة البائسة التي تمارسها الطفولة على الانسان الناضج ، الذي لا يكتفي بالتأوه « اطلاقاً وابداً » بل يظن نفسه أيضاً مضطرا الى الاعتراف بانه يشكل بالنسبة اليها شيئاً كثيراً . وانه هو الذي حطمها ولطخها بالعار مدفوعاً بالحاجة الى المعرفة،انه المسؤول عن قذارته الخاصة : « يجب الا يشيخ الانسان ، وان لا يعرف العالم » .

غير ان صعودنا من جديد بالفكر - حتى ولو كنا لا نستطيع - الى

الطهارة يجلب عذابات اخرى . اذنكتشف ،لو كان سعينا صادقاً ، ان الطفولة لا تكتفي بنفسها . انها لا ترتكز في وضع معين بل هي لا تني تتعرض لقلق حب الاستطلاع . هنالك سمات يمكن ادراكها بسرعة خاطفة مثلا زغب اللحية كلحية التيس ، وضحك الفتيات ، هذان الكلبان شبقان هناك . في الساحة - تثيرها ، والقلق الداخلي ينقل عدواه اليها . كنا نظنها عذراوية فاذا بها غير سليمة . « عندما راتب ذكر الصل وانثاه في لذتهما ... لم استطع التغلب على تهيجي » تلك الرغبة المرتدة الى الماضي لدى الكهل الذي يتمنى ان يعود شاباً . موجودة عند الغلام الذي يريدان ينضج : بشكل شبق مبكر. واقصوصة مثل « الحب الأول » تثبت لنا ذلك بشكل يثير الاعجاب . عجائب تجري من حولنا يكون للطفل علم سابق بها . وكلمات يجري تبادلها يعلق عليها ويحملها طاقة قدسية وعجائبية . مكيدة كاملة ترسم معالمها تشكل بالنسبة اليه وفي وقت واحد حافزاً وحرماناً ، جهالة وتجربة للخطيئة . بالاختصار اننا لا نعود الى الطفولة ، كما يعلمنا « باڤيز » الا لنستنتج كم كنا فارغي الصبر لنتركها . لا احد يصمد أمام الاندفاع لخيانتها وهو لا يحس بالسعادة التي توفرها ، نريد ان نصبح رجالاً ، ونلعب لعبة الذكر ، والحصول على مظاهره ، وخصائصه . وكما ان العجز عن بلوغ البراءة يعمل في العجوز ، فإن العجز عن بلوغ النضوج يحرك الغلام .

هنالك اعتراف ثالث ينتظرنا ايضاً ، اذ ماذا ينتج من تلك

المحظورات ، من تلك الحدود المعروفة ،انها لا تمس ؟ تخيلات ، غيبيات مزيفة . « فرويد » مر من هناك . الكهل كامن في الانتفاضة الاولى للطفل ، والرضيع يحبا في الكهل . « هما يعيشان معاً دون ان يعرفا ذلك » . وامام الذي يرغب في ان يهرب الى عدم المسؤولية الطفولية ، تنفتح غابة من التصورات الساذجة المسبقة : التحديد الأساسي لمركبات النقص (Les fioretti du diable) (نزوات الشيطان) يكتب « ياڤيز » ثم يضيف : « ان ما كان ،سيصير » اما بالعكس وبالنسبة للذي يهنيء نفسه بانه قد نال بعض فنون العيش ، فيكون من الممكن دائما ان غول ايامه الاولى العجيب يوجه ذات يوم ضربة قدم الى القصر الورقي مع صرخة استغاثة ثاقبة : اوديب ! (Oeudipe) - ومن يستطيع ان يقول ذلك احسن منه ؟ - يذكره في كلمات غامضة في « محادثات مع لوكو » : « الجبل بالنسبة لك طفولة اخرى ، انت تراه كل يوم ، وحتى تصعد اليه . ثم يقول لك احدهم ، انك هناك فوق قد ولدت . وكل شيء ينهار . » الانسان يبحث في العالم الآخر عن فك الالتزام ، وقطع سلسلة الاحداث وفور أن يظن انه قد توصل الى جنة عدن تلك ، يكون قد غطي ولف بالاكفان واربطة الضرورة ، وبينما لم يكد بعد قد سبر قلب المولود الجديد الذي كان ، وداخله يصطدم بالحجر الصلب والصغير جداً للسببية . ويتخيّل ان الاختناق سيتهدده في المستقبل فتنشأ ردة فعله في التراجع . غير انه من وراء ظهره ، يأتيه رنين الأغلال ، لأنه لم يخرج اطلاقاً من محبسه .

وليس لتلك الخيبة النهائية من الأمل سوى مظاهر سلبية . وبقدر ما تباشر بحركة ، يهرب هدفها دون انقطاع ، - نعمة الطيش الطفولي - تلامس رحلة اطول لا الى اصول الفرد فحسب ، بل الى اصول الجنس البشري ايضاً ، في اعماق التاريخ وما قبل التاريخ . ترفع من قيمة السلفية ، وتشارك في خلق اسطورة نفس للعالم على طراز الحلم « بالنفس القدمي التي نملكها في ذواتنا » اي « النفس التي كانت عندما كنا اطفالاً » .

وفوق ذلك ، أن ترداد تلك الاتجاهات الرجعية يتخذ شكل حركة دائمة : « كل شيء يحصل لنا ثروة لا تنضب : وكل عودة اليه يزيدها ويكبرها ، ويمنحها علاقات جديدة ويعمقها . الطفولة ليست فقط الطفولة المعاشة ، بل الفكرة التي نتخذها عنها في الطفولة ، وفي الكهولة . ولهذا السبب تبدو كأنها المرحلة الأهم : لأنها الأغنى « بالأفكار المعادة » المتتابعة » .

وهنا نلمس تقريباً ، بهذا التحليل الجيد للتذكر ، الفكرة « النيتشية »[1] ، عن العود الأبدي ، او بالأحرى المفهوم الدوري الأبدي للحياة ، كما عرضه ، توماس مان في مقدمة « قصص يعقوب » (Jacob) . اذ بذلك ، وبذلك التطور الفكري ، يمكن ان نرى

---

(١) نسبة الى الفيلسوف الالماني « نيتشه » « المعرب » .

الحادث ، وذكرى الحادث ، والتاريخ والاسطورة متشاركة بينما هي في العادة متباعدة . « وپاڤيز » في الواقع كان بحاجة الى ذلك المزيج ، وحاول ، كما سنرى تحقيقه .

ومهما يكن ، يجب الا نهمل ، الاشارة الى اية درجة غذّى الفشل امام المدينة - الملائكية ، الشيطانية الخاصة بالطفل ، بالحساسية وبحدة الذهن ، استعادة ذكرى ذلك العمر المثير للشفقة الحاصلة غالباً . ففي ريف من الأرض المبهمة - أكمات مكلسة ومقاصب موحلة - حيث كل شيء يشع بالرموز الجنسية ، نرى اطفالاً ناحلين وسمراً . تارة محصنين بالحذر ، وتارة اخرى مجروحين او طافحين بالغباوة ، ينزلون المنحدرات ، وينثرون رشاشات لامعة في الساقية ، ويختبئون ، ويظهرون ، ويتقاتلون ويتفجرون ، ودائماً وراء طريدة لا يعرفون ماذا يفعلون بها اذا انشبوا فيها اسنانهم ، ويمتصّون برغبة بينة من الثمرة التي ذبلت رغم انها لا تزال فجة ، وقد سالت على طول خدودهم المملوءة بالغبار .

وفوق يهتاج المراهقون ولكن مختلطين معهم ، مسالمين ومدعين الشجاعة الى درجة ان ضوء القمر يجعلهم يموؤون كالهررة . ومعاً ، كباراً وصغاراً يؤلفون تلك المجموعة من السكان المتنقلين ، الرقيقي الشعور ، الغاضبين ، السريعين في بذل النفس بقدر ما هم سريعون في الثأر من الاعتداء ، العاطفيين الى حد اثارة الشفقة تحت قوقعة من الأنانية

الرجولية الزائفة ، يسموبهم في ايطاليا : الراغازّي (Les ragazzi)
وهم فئة من المجتمع ترغي كالزبد ، تتجدد من فصل الى آخر وقد كان
« پاڤيز » اكثر من « بازوليني » (Pasolini) عندليبهـا الحقيقـي .
كتب في كانون الأول سنة ١٩٤٩ : « لا تنجـح الا مع الشبـان في
قصصك » .

أنت تعرف أن الأشياء الخالدة على بعد خطوتين منك
(محادثات مع «لوكو»)

إن ما قلناه حتى الآن عن الآثار يمكن أن يمر كصدى على درجة متفاوتة من الغموض ، وكنقل على درجة متفاوتة من الزخرفـة لوجـود «پاڤيز» الذي هو بمثابة رسالة في حاجة إلى حل رموزها ، ومادة بناء معقدة في حاجة إلى المعالجة ، لتاريخ حياة شامل .

في الواقع ، يبدو الآن أن خطوة يجب أن تتم وأن عيناً يجب أن تفتح أقل حباً للاستطلاع مما هي متأملة على أفضل الصفحات التي خطها الكاتب . فرغم أنه منكمش على نفسه وعاجز عن الاختراع فهو لم يكتب فقط مدفوعاً بحب الذات (النرسيسية) أو بهادس الشهادة ، بل بحاجة ملحة جداً للدفاع عن نفسه وعن الآخرين - العالم الـذي يحتوينا جميعاً - إلى درجة أن آثاره قد حازت من ذلك ميزة لا يمكن للحادث العابر أن ينتقص منها ، وسمواً لا يمكن تفسيره بترقية ما غير معروفة من الأسفل .

وهو نفسه كان واعياً لذلك ، وهذا ثابت من عدد كبير من المقاطع في « مهنة الحياة » « الجنس حدث عابر ، وما ينالنا منه مؤقت وطارئ ، نحن نستهدف شيئاً من أكثر الأشياء قدسية وعجائبية ، ليس الجنس إلا إشارة له ، ورمزاً » (١٥ أيار سنة ١٩٣٩) ، ورغم عوامل الكبت لدى الذكر الفاشل ، وقفير النساء المحاط بهن ورغم الجو الشهواني الخليع ، المنبعث من بعض القصص ، لا نجد خطأ أكبر من إعطاء أهمية طاغية للشبق الجنسي لدى «پاڤيز» . وكذلك رغم الواجبات السياسية التي تمنى عدة مرات أن يفرضها على نفسه،والشعور بالأسف لعدم تمكنه من أن يكون جديراً بالقيام بها،ورغم التبشير الذي ظن بعض الأحيان أنه مضطر للقيام به ، نرى من الواضح أن نظره كان يتجه دائماً إلى ما وراء الحادث ، وكان ينفر حتى من اعتبار التاريخ بكامله كالمرأة الوحيدة المنفردة للوضع الانساني ، ومبدأ آخر فاعل سابق للعنف الذي ولدته الحرب ، وللسمة البدائية الأميركية . قد أخذ به في البدء في أول عهد شبابه ولهذا الاحساس الأول بالذات يعود دون شك عندما يصبح دقيقاً مع نفسه في تموز سنة ١٩٤٧ « الوحشية تهمك بصفتها عجائبية لا بصفتها عنفاً تاريخياً . أنت لا تحب قصص الأنصار أو الارهابيين ، فهي صريحة جداً.وحشي يعني أعجوبة امكانية مفتوحة » . وأخيراً فان الطفولة بدورها ، وبقدر ما كان تقديسها يتأكد لأسباب نفسانية يمكن تحليلها نفسياً . لا تصبح صاحبة الامتياز الوحيدة . مكاناً مغلقاً حيث يمكن أن نتخيل أننا واجدون الأمان ، بل تصبح الأساس ، والمرحلة

الأولى فقط «لأوديسة» في طفولة أخرى أوسع ، هي طفولة جنسنا والعالم .

يرغب «پاڤيز» في معرفة المقدمات والأسباب مدفوعاً بعاطفة مزدوجة ، أولا التواضع : فهو بصفته شاعراً كان يخجل من التغني بنفسه ،وبصفته روائياً كان يخجل من تصوير نفسه على طريقة «أنّونزيو» (Annunzio): لقد أراد أن يعتبر نفسه بمثابة أداة بحث تتناول جميع أمثاله . كما أن غيرية مكتسبة انضمت إلى أنانيته الأصلية ، كتب إلى فرناندا بيڤانو (حزيران١٩٤٢): « نحتاج إلى أساطير عالمية غريبة وهمية لكي نعبر بعمق وبشكل لا ينسى عن تلك التجربة التي هي مكاني في العالم » ثانياً : ما يلعلع في هذه العبارة ، من الخيلاء المشروعة الفتية التي تهدف إلى تبرير النفس ، أقل مما تهدف إلى إبداع الجمال، صوت ضعيف مهدد بالانكسار ، لأن النفخة متقطعة وبالاختناق لأن هنالك كثيراً من الآخرين يجأرون . وكما تقول «أرماندا غيدوتشي » (Armanda Guiducci) إن الأسطورة تشكل الضمان الضروري لوجود الشاعر « المسحوق تحت عنف العالم » .

و « پاڤيز » ، برجوعه إلى سنوات شبابه الخاصة ، العالم الصغير المبشّر بالعالم الأكبر ، يغوص من هذه الناحية في ظلال الأصول البشرية والكونية ، ويحوّل إلى نهايات أشد خطراً ، الأبحاث المثارة والقلقة عن كنز الأولاد ، والكائن الخفية ، والمثيرة والطاغية التي

تعصف بالمراهق وهو يلمح الأنثى . إن تلك اللعبة الساخرة من ألعاب المسارّة . يرفعها إلى مستوى الدراما ، بتحريك خيال طموح مفعم بالكبرياء ،التهمته قابليات موسوعية وما ورائية : ويتوصل إلى أن يعرض خارج ذاته ، «وداخليته» الأكثر التصاقاً بالغريزة » وأن يحول على هذا الشكل المشاهد الأكثر يومية إلى حقول تغص بوجود المجهولين . وترتجف وجلا من الملاحقات ، والاغتصابات والتضحيات البشرية ، وحوادث الارهاب ، والجرائم المشتبه بها ، لأن « ألا تفهم ، يقول «منيموزين» (Mnémosyne) في « محادثات مع لوكو» إن الانسان كل انسان ، يولد في هذا المستنقع من الدم ؟ وان المقدس والالهي يرافقانكم ، أنتم أيضاً في السرير ، وفي الحقل ، وأمام اللهيب ؟ كل حركة تقومون بها تكرر نموذجاً إلهياً . نهاراً وليلا ، ليس لديكم دقيقة واحدة سهما كانت تافهة لا تنبثق من صمت الأصول » حتى الذكرى نفسها ، يحولها «پاڤيز» إلى البحث لا عن شخصيته الذاتية ، بل عن غير الشخصي في نوعنا ، كما لو كان العالم يملك ذاكرة نستطيع النفاذ اليها . إنه يتابع وهو يتذكر مهمة عالم الأرض ، أو عالم الآثار ، متعبا في الطبقات الرسوبية والخلايا المتراكمة العائدة إلى أبعد العصور في القدم مستخدماً عبارات : مثل منجم ، عرق ، معدن ، حفرة ، تنقيب .

ويشعر پاڤيز بالاندفاع الحيوي الذي يشدنا إلى المستقبل وكلنا شراهة لتعلّم كلمة السر أو لمشاهدة الخاتمة ، يشعر به كأنه تيار ، يعاكس ، يجرفه نحو الكمال ، ويحمله على البحث عن مخرج ، وحل

الخلافات، والمصالحة لا في آخر مسيرتنا الضخمة ، بل في مطلعها ،لا في المرة الأخيرة ، بل في المرة الأولى لديه الأمل المعكوس .

إنه خوف من الكبر ،قال أطباء النفس ،المغتذون من أسطورة التقدم ، انطواء على النفس ،انهزامية .ذلك أكيد ولكن من يجرؤ على التأكيد أن وقت الوحي سيكون أقصر ، وأقل غنى وأخف ، في العالم الآخر ، مما هو في هذا العالم ؟ الفردوس المفقود يمتدكحلقة تحيط بنا من كل جهة على كل الأفق الذي يمكن أن تصل إليه أنظارنا ، وتلك الحلقة تنتقل في وقت انتقالنا نحن نفسه .

من الوهلة الأولى حركة تراجع ، علاقة حياء ، ويرتدي تقهقر بإيثار نحو القديم قليلا قليلا معنى الطمأنة (Sècurisation) .

يرى الشاعر منظراً يمتد أمامه . فالبداهة لا تكفيه حتى اننا نقول انها تخيفه ، بسبب الشعور بأنه معرض للفناء به ، وهو يشعر بالحاجة إلى أن يعطي ذلك المنظر بعض الكثافة ، وماضياً ، حتى عمر الأرض التي يتأملها في شكل نتوءاتها ويتنشقها في رائحة سمادها العضوي،ذلك المنظر كان ولا يزال منذ عدة عصور ، وهو محروث بالطريقة الوضعية نفسها ، أو متروك للاهمال منذ آلاف السنين كأنه تذكير ضروري بطبيعتنا الأولى ، هذا الحيّز يندمج في حيّز آخر سابق وهكذا دواليك حتى نقطة تسرب متناهية في الصغر ، تشبه الزر تكاد تزول حيث يحجز الانطلاق المستقبلي لجميع المساحات . « هذه الليالي الحديثة قديمة

كالعالم ». ان «پاڤيز» الواقف كالمزروع أمام تلك المشاهد ، يلجأ إلى التشبيهات فوراً وتثير انتباهه التشابهات فيتصور بدوره موافقات ، انها عنصر موضوع في سياق تكامل هذا المكان الفريد من نوعه ، يتقارب مع أمكنة أخرى فريدة من نوعها ، أو يلتصق بها أو يختلط معها، يقول «كانيلي» : « إنه الكون بأجمعه » .

والشيء نفسه نقوله عن الوقت ، كل ساعة تذكر بساعة أخرى مضت ، وما سيأتي ليس جديداً ، بل هو دائماً معروف ، لأنه سبق أن عرف سواء من قبل الفرد نفسه في وجوده الشخصي أم في الحياة السابقة التي منها يحمل دمه إرثاً غامضاً « إذ ماذا يملك الانسان خاصة ، ماذا يملك من العيش إلا ما سبق له أن عاشه في الواقع ». صدى يتردد بعد صدى للرنين الوحيد نفسه ، نصعد مجرى الخلود حتى تلك المرة الأولى التي لا يمكن ادراكها والتي رأت الزمن يتدفق من الأزل ، والتتابع ينبع من الثبات . وهنا النقطة المركزية ، الينبوع الذي لانني نرده دون أن نعرف . في الأزل ، لا في الزمن ، في الحاضر الأزلي توجد الجذور ونجد اكتمال كل شيء .

إنها شهادة تمسك عاطفي بزاوية من الأرض - « كما بلادي الأصلية ، أنا » - ذات تجذر إرادي في «البييمونت» الذي لا ينسى : « ينطفئ كل شعب عندما يفقد الشعور الحي بماضيه ». ذلك التراجع يخلق التناسق ، والتوافق والتأمل الصامت والديني ، والمزج فوق

الكلمات بين العالم الداخلي والعالم الخارجي ، أفضل بكثير مما يفعله اللجوء الفوضوي واللاثقافي بشكل مشهود ، والمثير ، والكوسموبوليتي للوحشية الأميركية .« هنا الحقل لا يقول لي شيئاً كي أتمكن من أن أفعل شيئاً آخر غير الصمت وتركه يتسرب إلىذاتي .الحقل ، والجذوع اليابسة ، تصر وتتجمد في قلبي . فيما بيننا لا حاجة إلى الكلمات لأن الكلمات سبق أن قيلت منذ سنوات » .

تلك المسيرة في التاريخ نحو الأسطورة ، وعلى حدود اللاوعي الخاص والجماعي ، قد حملت دون شك إلى «پاڤيز» القدرة على اكتشاف ذاته شبيهاً بأمثاله في عصور الأجيال . وعذاباته ، ربما قال لنفسه ، غير مثالية من مرض عام معروف تمكن مداواته ، أو من مرضية سابقة للرومانطيقية ذات صفة رديئة ، إنما هي بالاجمال - يحاول أن ينفذ إليها - تقليدية معروفة في جميع الأزمنة،وفي ظل جميع المناخات : إنها في جذور الكائن «پاڤيز» يشارك مصيراً عاماً . وألمه ينطلق من التطور ومن الانحطاطات البشريةالمتعددة ،أن له معنى .وخاصة أنه كان لذلك الاكتشاف نتيجة سارة على الآثار بحيث وضعتها في حالة التوتر وأعطتها هيكلية مأساوية - أقل يهودية - مسيحية مما هي يونانية ، أو بعبارة أفضل أيضاً آخية (Acheeune)،ليس من الضروري أن نحك طبقة الحداثة كثيراً لدى بعض الايطاليين ، لكي نجد أساس البناء القديم على طريقة «ڤرجيل» أو هوميروس لا يزال كما كان لم يمس

منحرفاً لدى اللواطي« بازوليني »(Pasolini) بطريركياً لدى الصقلي «بيرانديلّو» (Pirandello) . يخشى على شخصيات «پاڤيز» الذين يعيشون يومياً حياة القرية أو الملحقات أن يظهروا متحسرين إلى تحرك رخيص ومشوش لا رأس له ولا ذنب ، خاضع لصدفة الالتقاءات والاندفاعات الغريزية ، يركضون من ناحية إلى أخرى ، على سطح آنية مستمرة ، آنية محروقة من العمق ومن خطوط القوة كحشرات بنات الوردات فوق ورقة قرطاس ، خطبهم مفككة وأعمالهم غير متناسقة ، ولكن بفضل بعض المواقف التي تعرض بالكاد خطوطها الأولية وبعض النماذج المثالية المرتجاة ، فان هؤلاء الأفراد الذين لم يكونوا أحداً عند النظرة الأولى . يتجاوزون عالم الامكانية ، وينبثقون من التفاهة ليحوزوا ميزة هي في وقت معاً أرضية وسماوية ، حيوانية والهية ، ليدخلوا في اللعبة الحسابية والدامية التي هي على راس دائرة الكواكب وحيض النساء ، ومعارك الحيوانات في الأدغال ، وجرائم القتل والخرائب التي تحدثها النار ، والعبادات ، والتضحيات ، والطوائف . هيكات[1](Hécate) ، لبى الموعد فاذا باشعاع قمري ، طاغٍ ، بارد ، مثمر يغمر أجمل صفحات «پاڤيز»، وفي وصيته الأخيرة « القمر

---

(١) احد الاسماء الدالة على إلهين مختلفين جدا : هيكات البسيط : الاله القمري الممثل بـ « أرتيميس » « وهيكات » المثلث اي الهالجحيم المثلث الرؤوس او المثلث الابدان ، الممثل « بيير سيفون » « المعرب » .

والنيران » تشتعل الحرائق المتناثرة التي هي في وقت معاً نيران الفرح التشفعية . والحرائق المخيفة المتصاعدة من جثث الأموات التي طالبت بها الحرب اليوم ، والآلهة بالأمس كتقدمة على مذبحها .

وفي وسط ذلك الاطمئنان الذي ينتجه الشعور بالانتماء إلى الكل ، تصب إذن عوامل الغضب والخبث الاقدم منها يساوي الأحدث في الرعب ، وخاصة أن أفكارنا الأكثر سرية والمنكشفة شيئاً فشيئاً ، وكذلك أبعد مشاعرنا الباطنية المقتربة خطوة خطوة ، ترسم وتثبت وتستقر جامدة بسلطة هائلة ، تحدد مواقفنا ،وتديننا إلى الأبد . الغربة بالنسبة إلينا وراثية موحدة الجوهر . ليس هناك من مفر ولا مغفرة أو هدوء . نحن مسحوقون كما كان ملوك «طيبة»[1] ، أو أبناء « اتري » (Atree)[2] . لا عزاء ولا عظمة أيضاً إلا في التخلي عن المصير بكل صفاء ذهن وبدون اتهام معاكس ،وبدون اعتراض الرواقية تلتقي مع الجبرية البحر المتوسطية ويوجد شيء من الوثنية والمونولينية ((الأحادية) والتعبد الصنمي لدى بافيز .

---

(١) مدينة من اليونان القديمة نازعت سبارطة السلطة زمن « ايبا مينوداس » . مشهورة بالاساطير (أوديب - الرؤساء السبعة) .

(٢) ملك « ميسينا » ابن بيبلوس . مشهور في الاساطير اليونانية بحقده على شقيقه « يباست » وبالثأر الفظيع الذي اقدم عليه ضده . اذ قتل « تانتال » « ويبليستان » ابني هذا الاخير وقدمهما للاب على المائدة . قتله « ايجيست » الابن الثالث « لتياست » . « المعرب »

وهكذا استطاع أن يتماثل مع «انديميون» المحبوب من ديانا . لا فقط لأن امرأة ذات صوت أجش مرت في حياته ولا لأنه كان بحاجة إلى لقاء « عينين باردتين وقاتلتين ، عينين لا تنخفضان .. العذراء الخبيثة » بل أيضاً لأنه من تلك المعطيات الأساسية ، سيما إلى الأسباب الروحية الفكرية، ومارس فضول من أراد مفاجأة الألوهة ، فحوله «سيلينه» (Seléné) إلى مجنون . لم يقتصر الأمر على امرأة فقط ، ولا حتى على ربة ، بل تجاوز إلى الجهر بتلك الفسحة الرهيبة التي ينفذها المتوحش والالهي بحق حياة الانسان ، والتي تقطع الذكر ، وتذهب إلى حد محو الشخص الانساني .

ربما مات «پاڤيز» من انهيار انسانيته التي أقامها كحاجز واقٍ ضد ضلالات عصره والتي وجدها هي أيضاً في ذاته وفي كل واحد منا ، في قعر بئر ذاكرتنا الجماعية . تلك الذاكرة قد علمته : في البدء لم يكن الانسان .

« نحو الشفافية »

« تخليك عن الأرض ، والأرض ستعطي لك فضلا عن ذلك ، يكمن فيما يلي : بتخلّيك عن كل شيء تصبح الأشياء الصغيرة التي بقيت لك ضخمة » .

« مهنة الحياة »

لقد تصرف دائماً على الشكل نفسه : فبالنسبة «لپاڤيز» الشاعر : تحويل القصيدة إلى رواية وبالنسبة لـ « پاڤيز » الروائي : تحويل النثر إلى شعر . يعني الابقاء معاً على المقدمة والمؤخرة في مدى رؤية واحدة ، وكذلك الواضح وغير الواضح ، وتعايش حاضر عدواني ولكن متقلب وحاضر متلاش ولكن أساسي . وبالاجمال ، تكييف حساسيته قياساً لطرق مختلفة في وقت واحد ، من التصور - تلاعب دائم بالبعد الحيّزي - الزمني ، وتبعاً لعدة تلوينات معنوية - انطلاق وانخفاض في لحن غير منتظم الايقاعات .لكي يصل «پاڤيز» إلى مثل تلك الوحدة من عدم الثبات وإلى خطر التحلل ، ولكي يشعر بلذة تلك المعالجة المشكالية (الكاليبيدوسكوبية)[1] للحياة اضطر في البدء إلى تذويب لاشفافية

(١) الكاليبيدوسكوب : المشكال آلة انبوبية مؤلفة من مرايا مركزة بحيث ان الاشياء الصغيرة الملونة والموجودة في الانبوب تتحرك فتولد رسوماً مختلفة الاشكال والالوان .

الواقع . كونه واقعياً . أو على الأقل وارثاً للواقعية يشبه في ذلك أساتذته الأميركيين ، بتذوقه للفوري والملاحظة الخام ، وبصفته محققاً ريبورتاجياً ، متعلقاً بالأخلاق ، مجيداً في تقليد واقع التجوّل على مفترق الطرق ، غير أنه لم يشأ ترك عقله يثق بهذا الطراز من الواقعية ، إن تلك البداهة الواضحة لم تكن هي الحقيقية بسبب النقص في التعمّق والاستمرارية ، كما لم تكن لوحدها العالم . من الأكيد أن «پاڤيز» على طريقة الآلة ، لايكل من تسجيل الأحداث والتحركات والكلمات والصرخات والتنقلات والتحركات ، غير أن القماشة السمعية - البصرية ليست متماسكة . فـ « پاڤيز » يبعدها ويمزق ستارها . إنه ينذف المظاهر ليحولها إلى خيوط .

وبموازاة ذلك ، نجد أن البطل «الباڤيزي» ثمرة ممارسة جاهدة من التهديم الذاتي ، وعدم المبالاة ، وكونه صورة طبق الأصل عن الكاتب لا شك فيه ، فـ « بافيز » لم يفعل أبداً إلا وضع نفسه على المسرح ، في مقدمة المسرح . بسبب العجرفة ، أقل مما هو بسبب الماسوتشية ، وكرأس التركي ، وعلى الطريقة القديمة جداً « لويرذر » (Werther) الرومانطيقي المستعد للانتحار ، وبسبب الوسواس وعجزه عن أن ينفصل عن ذاته . وأن يهتم بالآخرين لأنفسهم ليس فقط بالنسبة إلى شخصه هو . غير أن تلك الصورة الطبق الأصل لا تحتل أبداً في الأقصوصة مكان الصدارة ، فهي ماثلة فيها في المجرى لكي نتحمل التحقير والاهانة ،

ولكي نتعذب من مشهد وهنها الشديد . ولا تظهر فيهـا اطلاقـاً لا الارادة الصلبة لابن الجبل ، ولا اندفاع الشاعر الغنائي الذي ينشد نفسه مادحاً ، حتى ولا حدة الذهن الأدبية التي غالباً ما برهن عنها «پاڤيز» في أقاصيصه الحميمة ، والبطل الأول الپاڤيزي هو أحد ما واحد ما من هؤلاء الغلمان الذين يضربون بأرجلهم الشوارع المكدمة (المرصوفة بالحصى) ويترددون إلى الأرياف ، منظمين في حال الكسل التي يعيشونها رحلات ، ونزهات تجذيف ، أو استحمام في النهر ينتظرون منها ، في براعة يخيّب ظنها دائماً ، لست أدري أي بوح ، يبدون في الوهلة الأولى صريحين ، بعيدين عن الهموم ، أقوياء، مفعمين بالمشاريع والأفكار التي نوقشت بحماسة بينهم : إنهم شبـاب جميل على عتبـة السعادة ، ولكن عندما نمعن النظر نجدهم غير موحدين متبلبلين وغير متعارضين فيما بينهم تقريباً من شدة عدم التناسق والشجاعة المصطنعة . شجاعتهم ليست سوى إثارة ، ميكيافيليتهم تعنـي فن الانسحاب ، لا ثبات لهم إلا في الفرار وشخصيتهم التي هي أبعد من أن تبدو قائمة كالبنيان تحت أنظارنا، تتفكك ، وتضيع في اللاشخصي للعمر الأول من الحياة الجاهل قدراته ، غير المتيقن من مصيره ، ولا يعرف إلا بذل نفسه في محاولات عقيمة ، غير ماهرة ، من الاقتراب والاستنتاج .

وإبداع الشخصية يبدو أنه كان بالنسبة للروائـي ، مدرسـة من التخلي ، ففي البدء نجـده يلجـأ إلى الغـاء الصفـات ، فللفضائـل

والسيئات أهمية ضئزى ، من كان يجرؤ أن يتباهى في القرن العشرين أنه يستطيع التمييز بينها ؟ ذلك النموذج الأعلى من الأخلاق ... مات ثم يلجأ إلى ترك الانتماءات الاجتماعية في الغموض،أو توقعها ... لفة ع هي بالنسبة للمنظر . علم النفس لا يستند إذن على شيء ملموس - ولا يتيح إدخال أي قانون ، إنه فقط ينصرف إلى تسمية النزعات والاتجاهات ، والمناورات المزيفة ، والانهيارات بدون تفسير ولا تعليق وذلك ما يظهر على شاشة السخرية اليومية . « تلك الحياة ... مة من وجوه وأشياء وتمزقات وأصوات ، كانت لقاء ملحاً دائماً ، حركة ... يكن لها ماض » وهناك شيء أكثر صعوبة : يجب الحصول بعد ... على استقالة الذكاء فان الشخصية رغم عدم كونها انساناً ذا فضائل ليست أيضاً شخصية مثقفة . ولأنها لم تكن انموذجاً ذا تصرف كبير ... ، أ طموح ، أو فاسد ، أو شجاع ، أو فاضل ، الخ ... فان حياتها ... تتميز بأية دلالة ايديولوجية . وتصبح بالضرورة تقريبية ضد إدتها تصبح الاستاذ والصديق في وقت معاً بالنسبة إلى ثقافتنا ... حن وذلك تحت ستار ، اللاثقافة لا وقفة وعي ، عن طريق المناقشة ، لا أثر لصفاء الذهن . والآراء ليست إلا أقوالاً غامضة في ... هواء واختلاجات خجولة - وطريقة لتثبيط عزيمة المخاطب - أو بشكل أدق أيضاً نتيجة إفرازات مهبلية أو خصوية .

وحينئذ نصل إلى الغريزة ، والسكر ، «والنيرفانا» في وضعية ا... سر

ولا أكثر من ذلك ، وقد استطاع «پاڤيز» خلال شبابه أن يترك نفسه في
ذا المنحدر . ولكن قليلا قليلا ، حل الحياة ، والالحاح تجاه الذات .
ول يصعد إذا شئنا أن نستعين بكلمة «جيد» الساخرة ، سار على
ذ المنحدر . وبسبب الحاجة للسيطرة على النفس ، حتى يتمكن من
كتابة أثر أدبي ، رفض الكاتب مبدأ الحيوية الانفعالية ، وفلسفة السعادة
ا لية . والانفعالات الداخلية لم تكن أيضاً غايات في حد ذاتها يجب
ت دها ، وحمايتها بغيرة ، بل كانت إشارات لشيء ما آخر ، ومراحل
ث ، نحو ماذا ؟

يظهر أن «پاڤيز» منع نفسه من الاختيار بين المعرفة الموضوعة
رفة الذاتية ، مقابل الواقع الفوضوي نجد جهازاً من التصوّر غير
بط بقاعدة ، الواحد بالآخر ، تبادل العالم وتمثيله، عملية التفكك
تنافر والانفصال ، في وقت واحد . ولا معقولية ما يحيط بنا ، وما يكمن
ا ، قد أدت إلى تفتت الشكل الذي لم يكن إلا مجموعة من العناصر
فرقة وبعكس «كورنيي» (Corneille) الذي حول روما القرميدية
، رخام ، قام «پاڤيز» بقولبة ميتولوجيتنا التقليدية إلى حجارة لبنية
لصق بآلهة الكروم والغابات نتانة تيس الماعز .

ليس في الأماكن صوت الراوي الكلي القدرة الذي يعرض لنا
شيء لا يمكن مناقشته ، وجود الأشياء والأحياء.و«پاڤيز» لا يصف أبداً
ل يكتفي بالتعداد : « هل أستطيع أن أشرح لأحد ما كنت أبحث

عنه ، أم أن أريه فقط شيئاً ما ،سبق لي أن رأيته ؟رؤيةالطنابر ، رؤية العنابر : رؤية الكومبـون ، سياج ،زهرة هندبـاء ، منـديل ذو مربعـات زرقاء ، مطرة للشرب ، وعصا معول ؟ كانت الوحدة تسرنـي أيضـاً هكذا كماكنت أراهادائماً :اشراك ، قديمة عجول صبورة ،فتيات مرتديات أثواباً ذات زهور ، سطوح على شكل أبراج الحمام . بالنسبة لي كانت فصولا تلك التي مرت لا سنوات ، وكلما كانت الأشياء ، والأقوال التي وقعت عليها ، نفسها كما في السابق ، - حمارات القيظ ، الأسواق ، المحاصيل السابقة ، التي مما قبل خلق الكون - كلما سرني ذلك . وكذلك كان الأمر بالنسبة للحسـاءات، والقوارير ، والمحاطب ، والجذوع فوق السطح » .

عالمه إذن متتـال ، متقطع ، غير منظم أبداً في لوحة مؤلفة أو رؤيا عقلية للمجموع أو مشهد من النوع التعمدي ، إنه مجني في كل من تفاصيله من قبل الشخص الذي يسير ، مقطوف من قبل السائح الذي يجهل أين تقوده خطواته ينقاد إلى الغريزة الظرفية . وكل دقيقـة من الحياة ، ملء باع من المشاعر الغريبة الشاذة وما نسـميه الواقع نتاج عملية غزل خيوط نقوم بها كي لا نتغذى إلا من الايقاعات ، وبطعم كنا نشعر مسبقاً كأنها تخصنا . أما نتيجة غفلة الفكر وثقـوب الـذاكرة ، وتقلبات المزاج - ذلك الجانب الممحو والضائع من البطل البافيزي - فكانت تفرق ذلك العالم ،وترققـه ،ذلك العالم الذي تقلص إلى فيض

وحداني ، إلى إشعاع منبسط ، من لون أو من نغم . التأشير يظهر بدون انقطاع شاذاً ، مستهجناً ، غير مناسب ، ذلك أن «پاڤيز» يقفل عند شخصياته على كل شيء ، الهذر ، والبعد عن المنطق ، والتقطع ، ومرة أخرى نراه قليل الاهتمام بوصفهم وإعطائهم صورة ووزناً،وهو في هذا الصدد يتمسك بالاشارة إلى حضورهم المحتمل ، باللجوء فقط إلى تراكم الكلمات التي يتلفظون بها دون أن ينظر بعضهم إلى البعض الآخر ، ودون أن يكون عندهم نية الاتصال - ونكاد لا نجد تبادل حديث أو على الأقل ، بعض النتف من المناجيات المتناوبة ، كل شيء جيد إذا كان يساعد على الصمت : الملاحظة المبتذلة ، الكلمة الحالمة ، الكلام الجارح ، التعريض ، حبة الملح ، والشعرة في الحساء ، كما الهذيان الغامض للمتروبص السائر في نومه ، والتمتمة المخبولة من المسرنين (السائرين والمتكلمين في نومهم) الغارقين في دياجير الظلام . « ربة النثر الحقيقية لديك هي المحادثة ، لأنك فيها تستطيع أن تقول الالتاعات الغريبة - الاسطورية - الحاذقة التي تعالج الواقع بخبث » بشكل أنه بدلا من تسلسل الأحداث وتطور المشاعر والأهواء ، والنصوص الانشائية التقليدية يحل خطاب متفكك زعموه تجديداً باڤيزياً غير أنه أيضاً الشكل الوحيد الممكن للتعبير عما يسعى إلى قوله .

القراءة الأولى تؤدي إلى الضياع ، إذ أننا ننتقل من مخطط بدائي إجمالي إلى مخطط بدائي إجمالي غير تامين ، ومن اشارة إلى إشارة . ولهذا

النوع من الانشاء ، يجب أن نكيف إدراكنا وأن نكون بالتناوب تارة في تركيز وتارة في عدم انتباه ، وألا نخشى ، ان كان انتباهنا في مكان آخر أن لا نفهم . إذ بمقابل النص الناقص ، يجب أن يكون غيابنا لكي ينبعث بريق الخيال المرئي في البرهة الفاصلة ، كما ينبعث الاشعاع الموهوم الذي جعل « ارماندا غيدوتشي » تقول ان «پاڤيز» كان « اسبانيا ساحراً ». كما يمكننا الكلام عن التأثرية الماورائية ، ومناجاة الأرواح التنقيطية[1] : « أقاصيصي - بقدر ما هي ناجحة - هي قصص متأمل ، يرى حدوث أشياء أكبر منه » .

عبقرية «پاڤيز» تعود إلى أنه عرف كيف يعالج ما لا يدرك بالحواس ، بمهارة فنية غير معقولة ، كما لو أنه مثل «جويس» استخدم في كتابته ، مدادات مختلفة ، أو أنه هضم طريقة اللهجات الصافية المتنافرة ، العاملة الواحدة في الأخرى ، والتي استخدمها رسامو عصره . كما يبدو أنه كان يلاحظ عن كثب مستخدماً من بعيد لأبعد نظارتيه ، معيداً وضعهما فوق أنفه ، غير أن نظرته القصيرة الرؤية الميوبية[2] لا تتأمل سوى اللامرئي ، إنه يتلمس الأصوات الضاجة والألحان الموسيقية ، ولكنه وهو أسير على هذا الشكل، يتصور خاصة اللامسموع من حوله . الهالة ، والاشعاع في المحيط واللطخة غير

(١) طريقة تبالغ في تقسيم الالوان بالتقريب بين نقاط متعددة الالوان « المعرب » .
(٢) الذي لا يستطيع الرؤية من بعيد « المعرب »

المنتظرة والخلجة في الهواء ، الاستنشاقية ، الحارة الديناميكية ، هي التي تثير فيه العاطفة·أي كل ما يذيب رسالة أولى ملتقطة ويحركها إلى حلم ، كل ما يدعو إلى الاعجوبة دون أن يفرضها ، كل ما يحول المبتذل العامي إلى أصداء علوية فنية ، كل ما يضرب الأرض معرقصاً من فراغ الصبر ، ورغم ذلك وبوقت واحد ، كل ما مر في « أزمان قديمة جداً » .الماتحتي ، والمستتر يظهران على السطح بدون انقطاع ، واللاوعي يطفوفوق سطح الوعي .وكل ذلك بتخالط ،وينضفر برقة كالصوف من ألوان مختلفة لا عداد لها ، يحيكه الحائك الماهرقطعة قطعة . إن ذلك يشكل تحولا ، وتبديلا أساسياً دائماً في حالةتكون ،غير أنهما بدون نهاية . إذ ان ما هو قائم يدفع باستمرار إلى ما هو مفترض أن يكون وبالعكس . « أن تحاول إظهار حقيقة واقعة ، يعني أن تريد استخدام تلك الحقيقة في هدف آخر» .

لقد حصل «پاڤيز» على تلك الأعجوبة ببلبلة فكرنا بلبلة مضاعفة بوصفه أمام أعيننا العجاج الأحمق لنشاطاتنا اليومية ، واثارته فيها الانبهار الذي على فترات ورغم كل شيء ينبثق منها ، كان الهزء يولد البوح ، وكان الاحساس يفتح الصراط أمام الوجد والنشوة ، إن ما يبدو قبل كل شيء للعيان ، وما هو أول بشكل مأساوي في أوضاعنا المتصلبة ، والآلية ، والمرهقة ، هو أيضاً الذي من خلاله يكون لنا منفذ إلى ما هو الأساسي الأكثر تراجعاً . فالتشاؤم الاغتيابي والقلق من

الفراغ قد هيئا ، وأرجفا على فترات الدغدغة الكثيفة للكمال العرضي المؤقت .

« عبّر عن فكرتك لكي تعرفها أحسن » كان يقول أفلاطون ناصحاً . أما إذا سألنا «پاڤين» فلا شك في أنه كان سيجيب بالعكس : « اخنق فكرتك لكي تعيشها أحسن ».وقد أحل مكان الجهد نحو التعبير ممارسة الحجب والتستير . إنه لا يندفع بل يكبح نفسه .إنه يضع الستائر ويرفع العوائق ويمنع عن ... « الأشياء الذكية أنت الذي عليك أن تعرفها وتطورها لكي تؤلف تاريخك ».لقد أبرز نطاقاً لبقاً من الاعتراف المبطن ، بكلمات مبتورة أو منسلّة ، كان يخفي الأشياء ، ويمارس الانبات البطيء للفكرة المطمورة عميقاً في أعماق الصدفية . وكان يعير انتباهه إلى ما يجب أن يبقى ثمرة غفلة ما . وكان ينصب نفسه مسؤولا عن الانتاج الذي ليس في الحقيقة من اختصاصه بل يتعلق بخصب اللاوعي .

وقد توصل تقريباً إلى تفضيل وسيلة التعبير على الغاية من التعبير ، واتقن طريقة عدم التوضيح.لقد ترك نفسه تتلبدبالوسيلة ،والشاعر في نظره : « هو الروح التي تجسد في التقنية الأشياء التي يعرفها » . إنه في استسلامه لعدم تحفظ القارئ ، واضطراره بدون توقف إلى الاعتراف خجلا لاهثاً مضطرباً ، لم يكن باستطاعته اطلاقاً أن يبلغ الاستقلال الضروري لنزع الأثر الأدبي عن الرجل الذي كانه . لم يكن ينقصه

شيء أكثر من السخرية السباقة التي تجلب الخفة اللعبية إلى كوثرن[1] ، التراجيديا . وحده ذلك الافتتان بالتقنية - الموروث من التلميذ المجتهد ، أو من الاعجاب بالعامل الصادق - قد أتاح له فرصة التراجع الضروري ، والمراقبة التي لا تنقطع على النص ، وعلمته فن المحافظة على برودة الرأس حتى عندما يكون الدماغ ملتهباً . هدوء وحذر : كل شيء في وقته ومكانه في النسبة الصحيحة لتحقيق التوازن والكمية الملائمة ، تحفظ واقتضاب، استعمال العبارة المراوغة ، في الغالب ، التوافق ضمني والكل مغلف في بيئة من الوقاحة المستورة ، والتبجح اللامبالي . نحن على متقاطرات الدندنات المفهرسة ، والمبوبة الخاصة بالفصاحة وكذلك ندير ظهرنا إلى أدب المختبر ، بحثاً عن اكتشافات مرتابة بقدر ما هي مريبة . أما فضائل الأسلوب الباقيزي فهي من المألوف مستمدة من قوانين الضيافة ، اختفاء الذاتية ، الاهتمام ، الدقة ، وجميع الفضائل الأخلاقية إلى درجة أن الذي يتحلى بها يذهب حتى المبالغة في التواضع إلى حد أنه يرغب في جهل أنه يملكها ، وإلى حد أنها تشرفه ، لأنه فور أن يكتشفها يفقد الاستفادة منها ، كما في قصة الجنيات : « سر الكيان الفنّي انه يخفى على خالقه ، حتى الوقت الذي يتوضح له فينتزع منه كل اهتمام » .

وهكذا ينتج بفعل الالتماس الواعي ، والمتفق مع الضمير لثروات

---

(١) خف كان يحتذيه الممثلون في القديم « المعرب »

اللاوعي ، وبفعل التطور الغريب الشاذ للأهمية اللامعقولة المعارة للتفاهة ينتج تأثير متبادل خفي بين المؤلف والقارئ وخاصة في عالم معوز وسريع العطب . وينهض شعاع من العالم الآخر ، هو فجر وغسق في وقت معاً ، يوسع ويكثف ، ويحول ، وينشئ توافقاً كلياً ، بين الأشياء وتداخل بعضها في البعض الآخر .

لقد كان الأمر كأنه نوع من الجبر :الكلمات على ما يظهر ، الجمل ، الأفكار لم يكن لها معنى . ولكنها رغم ذلك وبشكل اختياري ، وتقريبي ، كانت منتقاة ، مهذبة ، وتتابعها ينشئ نصاً ، فباسم أية قوانين ؟ ولمصلحة أية شعوذات ؟ إنها أحجية . لكن تلك النصوص ، قد ترجمت رغبة ، نية ، وهي تسبح دائماً في وسط من الروحية . بحيث أن اغنية انبثقت من الضجيج . والخبز أفرز طعم القمح . كل ذلك قد جعل التفكير فيه مرة ويمكن التفكير فيه ساعة نريد . وقد الصقت فيه الذاكرة ذنبها النجمي (Queue De Cométe) ، إنها كلمات سر الجماعة : « الفكر الميت يا لوكو» ليس له من الخلود إلا هذه « الذكرى التي يتركها . إنها أسماء وأقوال » .

« مدى الجسر »

« لقد نشأ في سياق السنين نظام من الأفكار والمبادىء معقد جداً ومتصلّب إلى درجة أن تحقيق أبسط واقع يصبح محظوراً عليه ، وكلما أصبح ذلك الواقع البسيط محظوراً ومستحيلا . كلما أصبحت الرغبة في التغلب عليه عميقة في نفسه ، معقدة ومتفرعة كنبتة مظلمة وخانقة »

(ناتاليا جينز بورغ : « رسم صديق »)

لقد أحس «بافيز» دائماً أنه دون مهمته ، غير أنه لم يكف أبداً عن اعتبارها فائقة الحد .

ناقلا خطاه على خطى «الفييري (Alfieri) شاء أن يخرج البييمونت وإيطاليا من ريفيهما . « لقد اكتشفنا ايطاليا – وهنا النقطة المركزية – ببحثنا عن الناس والكلمات في أميركا ، وروسيا ، وفرنسا ، واسبانيا » . لقد بذل جهد المستميت لفصم الصلات التي كانت تربط

الثقافة الايطالية بالماضي ، مقترحاً لها آفاقاً واسعة مستقبلية أو ما قبل التاريخية ، وتحريكها بخلجات جديدة ، لقد اشترك في مجاوزة ماركس وفرويد .

ولكن من يضم كثيراً يعانق سيئاً . الذكاء رأى بعيداً هناك ،أما التحقيق فبقي قريباً جداًهنا ، فـ« باڤيز » لم يخلق مدرسة أدبية ، ولم يقد أية حركة . لم يكتب أي كتاب مكثف ، ولا أية رواية مشهورة وذات منزلة قومية أو عالمية . وفي الجو المتوتر والواقع الفاسد لايطاليا الفاشستية وفي عزلة عن أوروبا والقارة ، وفي محاولته عبثاً تنشق الهواء بجهوده الخاصة لم يتمكن أيضاً من التحرر من نتانات محابات ذاتية خطرة .فتح أبوابه ونوافذه على مصراعيها ، وكان يتنشق ملء رئتيه نسائم بحر الجنوب ، لكنه بقي ساكناً متعذباً ، ومتمتعاً بوحدته ، دون أن يكون مغفلا يجهد نفسه للخروج من البئر ، ولكنه يستخدم أيضاً لغايات الظهور والتفاخر الاحساس بالدوران ، والتورط والقيء المر للفشل .

ومن هنا تتأتى صفة الغموض في كتاباته : شافية بالتأكيد : جهد طويل من التطهير . ويمكن ان حالة من الشحنة فوق الحد هي التي جنبت «پاڤيز» انهيارات نفسية متعددة وعميقة ، وجعلت الانتحار يتأخر، وأخيراً وجدت الارادة الفرصة لكي تظهر ، وتنطلق ، للنتيجة الجميلة في كتاب ، أو بضعة كتب خرجت ليقرأها الغير . ليس الاجترار الكئيب (للنوراستيرينا) للخور العصبي المعرض للتفاهة وللنسيان السريع هو الهدف،إنما الهدف هو الثمرة لبراعة سعيدة والبرهان على يقظة متفوقة ،

شكوى حادة بالتأكيد ، اعتراف ضعيف في بعض الأحيان ولكنهما رغم الغمغمة بهما تحت حماية تقنية انشائية مراقبة بعناية لا يضيعان كالماء في الرمل . للنص ثقل نوعي وإطار يمنحانه الاحترام : من التخيل الخادع الأبكم ، إلى سرده بواسطة الكلمة ، نذهب دائماً نحو نوع من التنظيف والتطهير . للسرد مهمة : بفضله المؤلف والقراء يتعلمون أن يعرفوا وأن يتعذبوا معاً . الاعلام والتفهم يتجولان في الجسم الاجتماعي ، وشعلة المشاركة الوجدانية تعدو ملتهبة وأفضل من ذلك أيضاً : الأقصوصة تعمل،تملك وجودها الخاص ومصيرها الخاص . إنها تنتصب مطلقة، حرارتها ، وموجاتها ، وموسيقاها الحادة الفائقة الوصف إنها ستخلد. ومع ذلك يستمر عائق باقياً : شق، تنافر يتسع بدون مبرر ، نقص ، قصور ،هناك عدم تناسب بين النزعات الغريزية والصلاحية ، بين المشهد البانورامي ومدى ميدان العمل . إن پاڤيز بحياكته على النول ، وباعادة وضعه بدون انقطاع على النول الجنس نفسه من القماش ، لم يغير شيئاً ، أو بالكاد في عصره : الجهاز رقيق جداً ، ونتاجه سري جداً . كما أنه لم يغير أو بالكاد من طبيعته العميقة : عدم الرضى استمر في تلغيمه والموت أتى في ساعته . بقي عائلا لنفسه ، ولنقل أكثر فأكثر مشابهاً لها كلما شكا وهو واعٍ من هذا الخط ، أو عاد فمر من تلك الطية ، أو حفر في مادته النفسية مسالك متشابهة . ووضعه لأثر أدبي له كان أقل من وضع أثره له بواسطة الولادة الثانية لمعرفة الذات - مرمياً زيادة عن ذلك كغذاء ثقافي لحب الاستطلاع فينا . هل

هو خلّاق ؟ دعك من هذا إنه تماماً خليقة نزوته للخلق ، وثيقاً لمدى معين منذ الأزل فان الأبعاد والنسب لم تتحرك قيد أنملة رغم الأهمية المزعومة للكتابات . إذ أن الكتابات ليست أبداً سوى حشو رشيق أنيق لهيكل عظمي مشوّه » .

الآثار الأدبية مطوية على نفسها . مغلقة كأنها مهتمة لاخفاء نفسها ، قاصرة إلى الحد الأعلى . وهي تسأل وترفض مسبقاً الاحسان من قبل انتباه صديق ، وتقبل التعزية ، يجب أن نحفز أنفسنا للاستماع .. وألا نخشى أن نكون من وقت إلى آخر عرضة للزجر ، كتبت « ناتاليا جينزبورغ » ما يلي : « كان حزيناً في بعض الأحيان ، لأننا أردنا لو نستطيع أن نأتي لمساعدته ، لكنه لم يسمح لنا أبداً بكلمة شفقة ، حركة مواساة ، حتى أنه حدث لنا ، ونحن نتشبه بطريقة حياته ، أن رفضنا شفقته في ساعة فقدان الشجاعة » .

نتعرض لأن نحس بمشاعر الأسف ، في حال اكتشافه هكذا من خلال الذين عاشروه : فان نفترض أو نتصور «پاڤيز» مختلفاً عما كان ، وأكثر انتصاراً ، مكلّلاً بهالة أخرى يعني أننا اخترعنا له تكويناً عقلياً وعصبياً قادراً أكثر على الحياة . إننا نتجمس لأن نمنحه ذلك لاحقاً ، إننا نرميه بين ذراعي امرأة متفهمة ، إننا نتخلى عنه ملقى على ديوان أحد الأطباء النفسيين المشهورين ، إننا نأسف أن طاقاته قد تحولت إلى مصلحة الأثر الأدبي ، أكثر مما استخدمت قبل ذلك في تخصيب التربة

حيث كان يجب أن تنبت : لقد كان يمكن أن تقوي المداميك الأساس . وتصفي مياه الينبوع الموبوءة ، إننا نحقد تقريباً على مؤلفاته البذيئة التي تحت مظهر المناجاة ، وانطلاق المكبوت يمكن أنها شجعت التشنج ، والتي لم تسجل مراحل تطور ، أو تفوق على الذات، وإنما سجلت خط السير الفظيع للتراجع والتقهقر . إنها لم تذكر أنباء الطهر النفسي ، بل دملا يقضم في الأحشاء .

ولكن لو أننا خلصنا الشاعر على هذا الشكل ، فماذا كان يمكن أن يحدث للشعر ، وماذا كان سيحدث للسبب ، واطلاق الصرخة لو أن الجنس كان قد أشبع . والنفس قد تخدرت والحلق لم ينقبض ؟ السحر والجمال كانا تبخرا في الوقت نفسه مع الشذوذ لأن الفن في بعض العصور زهرة الألم ، وهو كذلك بالنسبة إلى «بودلير» بقدر ما هو بالنسبة لـ« پاڤيز » أو على الأقل الشرارة بين طمأنينة النفس الأتاركسيا) ، وإرادة المقدرة ، نتاج ابتعاد التوتر المثير للعذاب . نبتة تبدو للوهلة الأولى ناحلة مصابة بالمرض ، ولكنها ذات تفكير صريح جداً وذلك فقط بما يمكن أن نعرف أو نقول عن الانسان، عما كان، عما لم يستطع أن يكونه ، الانسان قبل كل تغيير .أعني بالنسبة لـ « باڤيز » والعلاقة الغريبة دائماً نفسها ، بين اتساع المشهد ، والرؤية المسبقة للرحلة التي لا تنتهي ، والمدى الضيق للجسر ، وقنطرته المكسورة تؤدي إلى السير الخطأ فوق الفراغ .

« الشيء الوحيد الذي أتخلى عنه هو بعض الكتب من تلك التي فيها كل شيء قيل عني ، أو كل شيء تقريباً » .

قطع مختارة

« الموت سيأتي »

الفردوس فوق السطوح

النهار سيكون مضيئاً ببرودة
مثل الشمس عندما تشرق ، أو عندما تغيب
والزجاج خارج السماء سيحبس الهواء الملوث
سنستيقظ ذات صباح ، ومرة واحدة للأبد ،
في الحرارة اللطيفة للنعاس الأخير : سيكون
الظل مثل تلك الحرارة اللطيفة . من النافذة الواسعة
سماء أكثر اتساعاً أيضاً ، ستملأ الغرفة .
ومن السلم الذي صعد عليه مرة واحدة وللأبد
لن يصل لا صوت ، ولا وجوه ميتة .
سيكون من العبث النهوض من السرير ،
الفجر وحده ينفذ إلى الغرفة المقفرة
والنافذة ستكفي لالباس كل شيء
بضياء هادئ ، بالكاد هو نور

سيلقي ظلا ناحلا على الوجه الممدد .
الذكريات ستكون عقدات ظل
متلبدة كجمرات قديمة ،
في الموقد . الذكرى ستكون اللهيب
الذي كان يقضم في النظرة المنطفئة .
يجرب أن يغني بصوت منخفض . إنه بعيد النظر
على طول المنحدر حيث بقعة العليق المعرى ،
التي كانت خضراء في شهر آب . ثم يصفر لكلبته
وتظهر الأرنب ، فلا يشعران بعد بالبرد .

العمل بتعب : صفحة ٢٣٣
القصائد الجزء الأول
«غاليمار» .

«أجداد»

مذهولا بالعالم . لقد بلغني عمر
حين كانت قبضتاي تضربان الهواء ، وكنت ابكي وحيداً .
أن أسمع الرجال والنساء يتكلمون
دون أن أدري بماذاأجيب ، شيء غير مسرّ
لكن ذلك العمر قد انقضى أيضاً،لست أبداً وحدى
وعندما لا أعرف بماذا أجيب ، أتجاوز الأمر جيداً
لقد وجدت رفاقاً عندما وجدت نفسي .
لقد اكتشفت بأني كنت قبل أن أولد أعيش دائماً ،
في الرجال الصلبين ، أسياد أنفسهم ..
والذين لم يكن واحد منهم يعرف بماذا يجيب ويبقون كلهم هادئين .
صهر وابن حميه افتتحا تجارة - صدفة الحظ
الأولى في الأسرة - الأجنبي كان جاداً

حاسباً دون توقف ، بخيلا وبدون شفقة : امرأة
أما بالنسبة لنسيبنا . في المخزن ، فقد كان يقرأ الروايات
في القرية كان ذلك شيئاً - والزبائن
الذين كانوا يدخلون
كانوا يسمعون الاعلان بواسطة بعض الكلمات النادرة
عن عدم وجود سكر ، ولا سلفات أيضاً .
وان كل شيء قد نفد . وهو الذي بعد ذلك ،
ساعد الصهر المفلس .
وعندما أفكر بهؤلاء الناس ، أشعر أني أقوى بكثير
مما إذا نظرت في المرآة نافخاً جسدي .
وراسماً على شفتي ابتسامة سامية .
كان لي ، في ليل الأزمنة جد
انهار بسبب واحد من مزارعيه
فأخذ حينئذ ينكش بنفسه الكروم - في الصيف -
ليكون له عمل جيّد . وهكذا دائماً
عشت ، واحتفظت دائماً
بوجه مقدام . ودفعت نقداً .
والنساء لا يعتبرن عندنا، أريد أن أقول
انهن في أسرتنا ، يبقين في المنزل
ويضعننا في العالم ، ويبقين صامتات

ولا يحسب حسابهن لشيء. ونحن نتساهن .
كل امرأة تنشر في دمنا شيئاً من الجديد .
غير أنها تنطفئ كلياً في هذا العمل
ونحن وحدنا باقون ، هكذا متجددين .
نحن الرجال المملوئين بالخطيئات ،والعادات المضحكة والأشياء المخيفة
- نحن الرجال ، الآباء - البعض قتلوا أنفسهم
غير أن هناك عاراً لم يمسس أبداً واحداً منا .
لن نكون أبداً نساء ، أبداً ظل شخص ما .
وجدت أرضاً عندما وجدت رفاقاً
أرضاً رديئة حيث يعد امتيازاً
عدم العمل عند التفكير في المستقبل .
إذ أن لا شيء سوى العمل يكفيني ويكفي من يخصونني
نعرف كيف نقتل أنفسنا بالالتزام ، غير أن حلم آبائي
الأجمل ، كان دائماً العيش دون القيام بأي عمل .
لقد ولدنا ، لنتيه مع الصدفة خلال
هذه التلال
بدون نساء ونحتفظ بيدينا خلف ظهرنا

القصائد الجزء الأول
« العمل بتعب » صفحة ٣٧ - ٣٨
(غاليمار)

الليل

من النافذة الفارغة
كان الولد ينظر إلى الليل فوق التلال
الغضة والسوداء ، مذهولا من رؤيتها متراكمة :
حيث جمود غامض ورقراق . وفي وسط أوراق الشجر
التي كانت تتمتم في الظلام ، تظهر التلال
حيث أشياء النهار والسفوح ، والأشجار والكروم
كانت واضحة وميتة ، والحياة كانت غيرها
مصنوعة من الريح ، والسماء ، والأوراق والعدم

(المصدر نفسه)

الاله - التيس

البرية بلاد من العجائب الخضراء بالنسبة للولد الذي يقضي فيها الصيف ، فيها الأزهار، وإذا المعزى عضتها تنفخ بطنها فيلزمها أن تعدو .

وعندما يقضي أحد الرجال لبانته مع فتاة - لديهما شعر هناك تحت - الولد ينفخ بطنها .

وعندما يرعيان الماعز يتبادلان التحديات ويمزحان فيما بينهما .

ولكن كل واحد ، يبدأ عند الغسق بمراقبة الجوار كله بدقة فالأولاد يعرفون أن يروا أن حية قد مرت بسبب الأثر المتلوي الذي بقي في التراب . لكن لا أحد يعرف إذا كانت لا تزال تسعى في الأعشاب

هناك بعض الماعز تتوقف في الأعشاب
فوق الحية تماماً ، تتمتع بأن تُمتَص
والفتيات أيضاً يتمتعن بأن يُمسَسْن .
عندما يرتفع القمر تصبح الماعز قلقة
يجب ملاحظتها ، وسوقها إلى المزرعة ،
وإلا فان التيس ينتصب ، قافزاً في الحقول
يبقر المعزيات ، ومن ثم يختفي .
فتيات محترات يأتين منفردات ليلا إلى الغابات
وإذا أطلقن الثغاء وهن مستلقيات على العشب ، يركض التيس ليجدهن .
ولكن ما إن يبزغ القمر ، حتى ينتصب ويبقرهن .
والكلبات التي تعوي في ضوء القمر
ذلك أنها سمعت التيس الذي يقفز
على قمم التلال ، وشمت رائحة الدم .
وفي الاسطبلات ، تهتاج الحيوانات
الكلاب الأقوى وحدها تعض قيودها
وبعضها يتخلص منها ، ويعدو تابعاً التيس

الذي يرشها ، ويسكرها بدم أكثر احمراراً من النار .
وثم ترقص جميعها ، وهي منتصبة تزبجر
في وجه القمر .
وعندما يظهر الكلب من جديد في الصباح ، منجرداً ومزمجراً ،
يقدم له الفلاحون ، الكلبة رفساً بالأرجل
في مؤخرتها .
والفتاة التي تتيه في المساء ، والأولاد الذين يعودون
مع الغسق ، مع معزى ناقصة يتعرضون للضرب .
إنهم يحشون النساء ، ويتعبون جداً بلا حياء .
الفلاحون .
هم دائماً في الخارج ، في النهار كما في الليل ، وحتى أنهم
لا يخافون أبداً .
من النكش تحت ضوء القمر ، أو من إشعال نار
من النجيل في الظلام ، وبسبب ذلك تكون الأرض
جميلة جداً ، وخضراء
جداً ، ولأنها منكوشة
يكون لها عندما يأتي الفجر .
لون الوجوه الملوحة ، سيقومون بالقطاف
وسيأكلون ويغنون ، ويقشرون الذرة .
ويرقصون ويشربون ، هنالك فتيات يضحكن

لأن أحداً أثار قصة التيس . وعالياً جداً في الغابات
على القمم الصخرية . شاهده الفلاحون
يبحث عن معزى وينطح الجذوع
بضربات من رأسه
لأن الحيوان الذي لا يعرف أن يعمل
والذي يستخدم فقط للنزو ، يحب الهدم

المصدر نفسه
الصفحتان (٤٧/٤٨)

وجهكِ من الحجر المنحوت
ودمكِ من الأرض الصلبة
لقد جئتِ من البحر .
تستقبلين وتتفحصين
وتبعدين عن ذاتك
كالبحر قلبك
ليس إلا صمتاً ، إلا كلاماً
ملهماً . أنت مظلمة
والفجر لديك صمت.
وأنت مثل أصوات
الأرض - والدلو المصطدم بالبئر ،
أو أنشودة النار ،

التفاحة التي تسقط بصمت
الكلمات المستسلمة والمرة
على عتبات المنازل
بعض الأحيان كنت أقف مسمراً ،
صرخة الطفل والأشياء التي لا تمر أبداً
أنت داكنة لا تتبدلين
أنت الكهف المغلق
أرضه من التراب الممهد،
حيث دخل الولد
مرة ، عاري القدمين
وبدون انقطاع يفكر فيه.
أنت الغرفة المظلمة
نفكر فيها بدون انقطاع
كما في الباحة القديمة
حيث كان الفجر يطلع .

٥ تشرين الثاني ١٩٤٥
القصائد، الجزء الأول
(غاليمار)

المدينة

الأراضي المحروقة

نصل إلى تورينو في المساء
فنرى حالا في الشوارع النساء اللعوبات.
مرتديات ما يلفت النظر،ساترات وحيدات
كل واحدة تعمل هناك في سبيل الثوب الذي ترتدي
إنما تعرف كيف تكيفه لجميع الأضواء
فهناك ألوان صباحية ، وألوان للسير
في الشوارع العريضة .
لكي يبهجن الليل،أولئك الفتيات اللواتي ينتظرن
واللواتي يشعرن بأنهن وحيدات ، يعرفن كل شيء في الحياة
إنهن حرات . ولا يرفض أحد لهن شيئاً

القصائد الجزء الأول
العمل بتعب صفحة ٩٧
(غاليار)

١٧ تشرين الثاني

وأنا أبتعد - بدأت في اختراع وظيفة محددة للفن

في «البيمونت» بالتدقيق، وبشكل رئيس في تورينو: مدينة الأحلام بسبب كمالها الاريستوقراطي المصنوع من عناصر جديدة وقديمة ، مدينة القواعد بسبب خلوها المطلق من العلامات السيئة في الميدان المادي وفي الميدان الروحي ، مدينة الأهواء ، بسبب ملاءمتها للملاهي مجاناً . مدينة السخرية ، بسبب تذوقها الجيد في الحياة ، المدينة المثالية بسبب هدوئها المليء بالصخب . مدينة عذراء في الفن كالتي رأت الغير يمارسون الحب ، والتي فيما يتعلق بها ، لم تسمح حتى ذلك الوقت إلا ببعض المداعبات ولكنها مستعدة الآن إذا ما وجدت رجلها تجاوزها. وأخيراً المدينة حيث ولدت روحياً فور وصولي من الخارج ، حبيبتي لا أمي ولا شقيقتي . وكثير غيرها معها في هذه العلاقة ، لا يمكن إلا أن يكون لها حضارة ، وأنا فرد من جماعة . والظروف فيها تامة .

مهنة الحياة/صفحة ٢٢
(غالّيار)

... أنا في تلك السنة ، عندما بقيت وحدي قضيت أرباع ساعات يائسة . العودة إلى البيت للعمل لم يكن لها معنى ، كنت معتاداً جداً الحياة والنقاش مع «بياريتو» (Pierretto) وارتياد الشوارع . كان في الهواء ، وفي الحركة وفي الظل وحتى في الجادات أكثر من شيء لم أكن أستطيع أن أفهمه وأتذوقه . كنت دائماً على وشك التقاء فتاة أو الدخول إلى حانة حقيرة أو أن أقرر اتخاذ أية جادة والسير فيها . السير حتى

الصباح لأجد نفسي ، الله يعرف أين . وبدلا من ذلك كنت أجوب الشوارع المعتـادة ، ماراً ومعـاوداً المرور في المفـارق نفسهـا ، وأمـام الاشارات نفسها ،ومشاهداً الرؤوس نفسها . بعض الأحيان كنت أقف مسمراً . محتاراً في زاوية شارع ، وأبقى هناك أنصاف ساعات كاملة ، غاضباً من نفسي .

الشيطان فوق التلال ص : ١٢٢
(غاليمار)

أتذكر أني في ذلك الزمن ، كنت أستيقظ فجأة ، كنت أفكر«بليندا» ويخيل لي أنها كانت إلى جانبي ، ولكن بعد ذلك كنت أمكث في السرير وعيناي مغمضتان ، وأنا أفكر بشيء آخر تماماً كان لدي احساس بأن عندي هماً عميقاً ، وبكوني مثل طفل ، وأكثر وحدة من كلب ، وبأني ارتكبت شيئاً من الأذى وأني بدون أمل . لم أكن أبداً أستطيع الخروج من ذلك ، لم أكن أجرؤ على النهوض ، اشتهيت ألا أكون استيقظت ، ولو أني قضيت هناك.حتى أني لم أكن أتعزى من فكرة أن ليندا لو كانت ذات يوم إلى جانبي ، لكنت أخذتها . كنت أشفق على نفسي ، هوذا الأمر . كنت مثل طفل يضعونه عارياً على الطاولة ثم تخرج أمه وشقيقاته من المنزل . كنت أخبئ رأسي وأبكي .

«الرفيق» صفحة ٦١
(غاليمار)

عندما أصبحت وحدي ، في الماء الحار ، أطبقت عيني متوترة لأني تكلمت كثيراً ، ولم يكن ذلك يستحق العناء . وكلما حاولت أن أقنع نفسي بأن الكلام لا يفيد شيئاً ، كلما تكلمت . وخاصة مع النساء . غير أن التعب، وتلك الحمى الخفيفة تبددا سريعاً في الماء . وعدت أفكر في المرة الأخيرة حين جئت إلى «تورينو» - في أثناء الحرب - غداة غارة : جميع التمديدات كانت قد تفجرت ولا سبيل إلى الاستحمام .

كنت أفكر من جديد في ذلك وأنا أهنئ نفسي على الحاضر : لكثرة ما نستطيع أن نستحم ، الحياة تستحق عناء أن تعاش .

حمام ولفافة ، وفي أثناء ما أدخن ، يدي تلامس الماء ، لقد شبهت بقبقة الماء التي تهدهدني ، بالأيام المضطربة التي عرفتها بصخب الكثير من الكلام ، بهوسي ، بالمشاريع التي كنت أحققها دائماً ولكنها في ذلك المساء قد تقلصت إلى ذلك المغطس وذلك الدفء . هل كنت طموحة ؟ أرى من جديد الوجوه الطموحة ، إنها وجوه شاحبة ، موسومة ، منقبضة ، هل بينها واحد عرف انفراج ساعة من سلام ؟ وحتى في ساعة الموت ذلك الهوى لا يخف . لقد خيل لي ، انني لم أسترخ برهة واحدة ، يمكن اني منذ عشرين عاماً عندما كنت لا أزال غرة ، وعندما كنت ألعب في الشارع ، وكنت أنتظر ،وقلبي يدق ، موسم نثارات الورق ، والأكواخ ، والأقنعة التنكرية يمكن أني انطلقت على سجيتي حينئذ . ولكن في ذياك الزمن . لم يكن الكرنفال ، يريد أن

يعني شيئاً سوى لعبة خيول خشبية وكورون (Corrone) وأنف من الكرتون . ثم مع العادة المستهجنة في الخروج . والنظر ، وارتياد تورينو في المغامرات الأولى مع «كارلوتا» (Carlotta) والاخريات ، مع التأثر الناتج عن الشعور بأن هناك من يتبعك للمرة الأولى لقيت تلك الطهارة نهايتها هي أيضاً . ما أغرب ذلك الشيء ! ففي مساء يوم الخميس في منتصف الصوم حين تدهورت حالة والدي لتنتهي به إلى الموت . بكيت من الغيظ ومقته عندما كنت أفكر بالعيد الذي سأحرم منه . أمي وحدها فهمتني في ذلك المساء . وقالت لي ساخرة مني أن أنسحب من بين فخذيها . وأن أذهب لأبكي في الباحة عند كارلوتا . أما أنا فكنت أبكي لأن حالة أبي وهو على حافة الموت كانت تخيفني وتمنعني في داخل نفسي من الانصراف إلى الكرنفال .

دق جرس الهاتف ، فلم أتحرك من مغطسي ، لأني كنت سعيدة مع لفافتي ، ولأني كنت أفكر على الأرجح بذلك المساء البعيد حين قلت لنفسي للمرة الأولى إني إذا كنت أريد شيئاً ، أو كنت أريد الحصول على شيء ما من الحياة . فيجب علي ألا أرتبط بأي شخص ، وألا أكون خاضعة لأي شخص ، كما كنت مرتبطة بذلك الأب غير الملائم ، وقد توصلت إلى تحقيق ذلك . أما الآن فان كل غبطتي تكمن في الاسترخاء في هذا الماء وعدم الرد على الهاتف .

« بين النساء وحدهن »
صفحة ٢٥٨ (غاليار)

أعياد

راح الاستاذ من على المائدة الحديد التي كان يجلس إليها يصغي إلى الرقصة الأخيرة التي تختلج وتجلجل أكثر من أي وقت آخر. لتموت بصخب في مكانها. وضجة البوق ذي الفوهتين تغطي صفير المزمار. (الكلارينيت). وتجمعت الأبواق (الترومبيت) وتفجرت في صرخة تمزق الآذان، وانطلقت الصنوج من عقالها، ثم كل شيء صمت بدون توقع في غمغمة من صوت مخنوق ومضطرب، كما لو أن رنة الموسيقى البالغة أقصى الذروة سقطت من جديد على الأرض وهي تدندن بصوت خافت.

في الليل الرطب، الملطف بالخمرة، تعود روحات الزبائن وجيئاتهم إلى الظهور من جديد، وفي الصالة الكبيرة المرتجفة بالأصوات الزاعقة يكاد الناس يختنقون، وتحت الأصوات الشبيهة بالزئير والتي كانت تهز الستار الدخاني، كان العرق يسيل، وحول الموائد تجمع سائقو العربات العنابر ذوو الزنانير المصنوعة من الصوف الأحمر. وفلاحون عجائز وقد أسدلوا قبعاتهم على أعينهم، وشبان بزي زري والكؤوس في الأيدي والشفاه شرهة، وضربات على الموائد وأصوات تزأر وأوراق لعب ترمى ومستنقعات صغيرة من الخمر، وفي الخارج كان العيد، يا للشيطان!

والاستاذ من مكانه بالقرب من الباب ، كان يبترد بوضع يده على قارورة البيرة الفارغة مستنداً إلى الجدار وابتسامته تلوح مقطبة ، وبين قطاعات الظل وظهور الزبائن ، كانت الخادمة الفظة تجوب كأنها تطفو فوق الماء . إنها امرأة ضخمة بارزة العظام غليظة الكشحين ، وكانت وهي تسكب القناني والقوارير المنزوعة من غلافاتها القش تمط من شفتيها احتقاراً كما أن كل شيء ، والخمر والعيد لا تثير فيها إلا الاشمئزاز ، ويقفز كشحاها كلما انتصبت بينما الاستاذ يغمض عينيه نصف إغماضة . وفي الخارج أمام الباب حيث الاستاذ يحدق حيث يقع النور المحمر المنبثق من القنديل المعلق فوق الباب مقابل العتبة . حصل خلاف بين فلاحين اثنين ثقيلي الصوت ، لم يكونا يتحركان انما من خلال ضجة الأصوات ، الملعلعة من الأبواق والصرخات ، ومن خلال الوطء الشاسع الذي لا ينتهي للاقدام يسمع فقط رنين الشتائم الأجش المجتهد كأنه عجيج ثورين . استمرا بعض الوقت في عناد ، من خلال الصرخات البعيدة الباحثة عن نفسها ، وضجة الضربات ، حتى ظهرت الخادمة على الأسكفة وبدأت تصرخ بصوتها الحاد لتطردهما إلى مكان آخر . حينئذ تبع ذلك صمت طويل لم ، يكن يسمع من خلاله سوى ضربة صنج وحيدة لا يدري أحد من أين ارتفعت غاضبة ، دفع الفلاحان الخادمة ، ودخلا بخطى جليلة وبجدية ، يتأبط كل منهما ذراع الآخر ، واتجها إلى مائدة واقعة في أقصى الداخل .

بقيت الخادمة برهة أمام الباب وكشحها قريب جداً من خد

الاستاذ ، مادة عنقها من خلال الضوء الأحمر لتنظر نحو الظل المبيَض من تأثير اللهيب المرتعش لقناديل غاز الاسيتيلين . الاستاذ مال أيضا ليحدق من بين الكشح وقائمة الباب ، فاذا بالخادمة تنحني فجأة وتنظر إلى يديه مقطبة الوجه قائلة : « أرجو المعذرة » فرد الاستاذ متلعثماً : « إنك تمنعين عني الهواء » .

فأجابت الأخرى : « ليس الهواء هو الذي ينقص » ثم اسبطرت نحو أحد الزبائن تلبي نداءه .

وكلما تقدم الليل ، كلما أصبح صخب الخارج أقل ضجيجاً . فقط ضوضاء منعزلة من الموسيقى تطفو أيضاً في الهمهمة التي تموت ثم تموت في أثناء محاولة احيائها . غير أن القناديل تنطفيء والمكلن يفـرغ . وفي البعيد على طرقات التلال ، تبدأ موجات من الهتافات الصاخبة المترنحة في الريح . وفي القاعة قل عدد الناس ، وزاد الدخان ، وقويت رائحة الخمر ، وارتفعت ضجة من الأصوات الجشة الخشنة .

كان الأستاذ قد أشعل غليونه ، وزرعه بين أسنانه السليمـة ، وكان ينظر من خلال ذلك الدخان وهو يغمز بعينيه ، والخادمة كانت قد أتت وجلست في الجانب الآخر من الباب ، منوجهة نحو الخـارج ، رامية نظرات قلقة نحو الأصوات الصاخبة التي تحدثها الأقـدام ، ويدهـا الصلبة مستندة إلى ركبتيها البارزتين ، وقد مطـت شفتيهـا من شدة الاعياء .

وفي وقت ما شع وجهه بابتسامة ، إذ على الباب ظهرت امرأة أخرى ملتحفة حتى قدميها بمعطف داكن تشده على صدرها ، وجهها أشقر وأحمر وشاحب ، وقفت حائرة تحت عتبة الباب وابتسمت للخادمة

- «اديل !» (Adèle) قالت

صرت اديل ركبتيها وأفسحت لها في المرور بينها وبين المائدة لكي تجلس في الزاوية .

- «لقد انتهى ،قالت الشقراء متأوهة ، وهي تتجه نحو الجدار مغمضة العينين ، إنني أكثر إعياء من حصان »

افترت شفتا «اديل» عن ابتسامة عظيمة وقالت : « وأنا ماذا إذن ؟ » دون أن تحرك شفتيها ، ثم نهضت وخطت بعض الخطوات ، وتوقفت عند الباب ، باحثة بنظرها في الخارج .

- « الأمر ليس ملحاً يا «اديل» حتى أني لا أجد رغبة في نفسي للحليب هذا المساء . كل شيء يبدو سيئاً وفي كل مكان هذا المساء : أية نتانة هناك في الداخل . إنهم يصرخون وتفوح منهم الروائح الكريهة كالحيوانات ، أما هن على الأقل فلا يعرفن أن يغتسلن » .

ولما مدت رجليها تحت المائدة ظهر حذاء وردي اللون ، ثم انزلق قسم من معطفها فبان «كولانها» الذي يستمر لاصقاً بجسدها حتى صدرها . وهكذا بدت وهي محبوسة في ذلك الزي المشوش كأنها عارية ، عرياً مصطنعاً بلا حياة .

- هل هو دائماً نفسه الذي تنتظرين يا «اديل» ؟ قالت بلهجة كلها اعياء وهي تنظر من خلال الدخان .

فاستدارت «اديل» بحيوية : « انـي أسائـل نفسي لماذا كان في المرات السابقة ، يقفز من عربتـه ، عندمـا كان المسـاء لا يزال قائماً ويقترب - كان يجلس هنا حيث أنت تجلسين - وكان يحتفظ بي رغم أني أكاد أسقط من النعاس ، لكي أصغي إليه وهو يتحدث حتى الفجر ، ويأكل ويضحك، ولو شئت أن أصدقه كان سيحاول حتى أن يجعلني أرقص ..»

كانت الشقراء تصغي ، وهي تشد على شفتها السفلى بين أسنانها ، وترفع ذقنها من شدة التأثر .

« ... وحل عيد سان - روش فأصبحت لا أشاهده . منذذاك .لقد رحل على عربته ، وهو ثمل تماماً، أصبح يرتاد جميع حانات الوادي . وينام ملتحفاً السماء في الصحراء ، ولكن طالما أن هناك عيداً ، وطالما أن هناك حانة مفتوحة يفضل أن يموت جوعاً على أن يمر من هنا . إنه يذهب يحتسي الخمر في كل مكان أما هنا فلا . فكري فيما إذا كنت راغبة في انتظاره . غير أني أسألك : أليست الخمـر واحـدة متشابهـة في كل مكان ؟ ماذا لو أنه جاء إلى هنا ؟ ذلك سيكلفه أقل حتى ...

قالت الشقراء ببطء :

- «لا رجل يهتم بالمال عندما يريد أن يلهو ، وهم لا يحبون خمرة

بيوتهم . على الأقل ليتهم لا يعودون صباحاً ، عندما لا يجرأون على الظهور ، وعندما يشعرون بالألم في رؤوسهم ويتحدثون الينا وهم يبكون ، نحن الحمقاوات إذ نقدم لهم القهوة » .

فتحت الشقراء معطفها ، وبواسطة مروحتها روحت وجنتيها الناحلتين ، وهي مشدودة في ذلك الوشاح الوردي وتطايرت خصلات شعرها الخفيف من تأثير حركتها وبدت شفتاها المحمرتان جداً مغضنتين تنفخان الهواء . كانت تشبه شخصية تقويم ، في زاويتها المملوءة بالدخان ، وكانت الرؤوس في بعض الجماعات الموجودة في القاعة تتقارب وهم يثبتون النظر فيها ويتحدثون . أما الاستاذ فكان ينفث دخان غليونه بالاتجاه المعاكس ولا يكف عن التحديق من تحت . والاصغاء اليها وكان يزدرد خفية لعابه .

فقالت الشقراء لاهثة : « بالنسبة لي،السنة كلها عيد « سان روش » ونحن دائماً في الخنادق ، أو على الطرقات ، أو في عربة تتراقص وتتزود بالماء ، إن سائق عربتك على الأقل يذهب وحده ، وأنت تنتظرينه بسلام ، لست مضطرة إلى الجري وراءه ليلاً نهاراً ، وعدم التعرف إلى أي شخص آخر . وإلى أي مكان آخر ، مثلنا ، وان يكون لديك كرفقة حيوانين كثيري المطالب يوسخان نفسيهما ويأكلان ، يوسخان نفسيهما ويأكلان طول النهار ، كل شيء لهما ، ويجب تنظيفهما وتقديم الغذاء لهما ، وإلا وقعا مريضين ، أما نحن فلا نأكل أبداً ، هو لا يفكر

إلا بحيوانية ، إذا أمطرت السماء يجب الخروج لتغطية قفصهما . وإذا لم يكن لدينا مال ، علينا أن نجده من أجلهما . لو كان عندي طفل ، فلا شك أنهما كانا سيأكلانه » .

الاستاذ لم يطرف له جفن

وأكملت لاهثة

« ... ورغم ذلك كنت سأتحمل كل شيء ، لو لم تكن تلك الرائحة . لقد مضت ست سنوات لم أتنشق خلالها سوى تلك الرائحة ، وفي كل مكان تفوح الروائح الكريهة من الناس . من الموسيقى ، من الصخب من الوجوه الحمراء الثملة ، من الناس الذين يفتحـون أفواههم، من الناس الذين يحتسون ، ويصرخون ، إذا كان الصيف فرائحة العرق ، وإذا كان الشتاء فرائحة الاسطبل . وهناك ليال أشعر فيها بتلك الرائحة حتى في سريري . إنه هو الذي يحملها لي . إنـه هو الـذي فور أن نتوقف ، يركض فيملأ جوفه خمراً ، ويحتك بجميع الناس ، ومهما قضى ليلة في الخنادق إنه الآن يمتلكها في جلده ، رائحة الوحشية تلك ، تفوح منه أكثر مما تفوح من أسد ... » .

كانت «اديل» قد قفزت إلى الباب ، لدى سماعها صرير حديد عربة ، واستمرت الشقراء في كلامها متوجهة إلى الاستاذ :

« ... وفي بعض الليالي ، أتساءل كيف أصنع لأستطيع النوم معه .

إذ من الأفضل النوم في قفص . ولكن يجب أن يكون أني أنا الآن أيضاً فواحة بالرائحة الكريهة ، أنا هنا الآن ، لماذا ؟ »

نظرت حولها ، بعينين زائغتين - « خمرة وعرق . لا يوجد سوى سكارى ، اعطني حليبي يا «اديل» أنا أيضاً تفوح مني الرائحة ، أنا أيضاً تفوح مني الرائحة »

ضرب الاستاذ غليونه في راحة كفه ، ومسح جبينه دون أن يجيب .

التفتت «اديل» من الباب ، ونظرت إلى الشقراء بشرود وهمست : « لقد مر »

- من ؟ آه ، سائقك ، إذن هلا رأيت ؟
- لكنهم كانوا أربعة ، وكانوا يسيطون الحصان ، كانوا سكارى وهم ذاهبون لمتابعة الاحتساء .

أمسكت الشقراء بيدها المتقلصة على المائدة وقالت لها دون أن يبدو عليها أي قلق :

- تعزى يا «اديل»،رجلي أنا ، قد تزوجته حتى أنه ترك سباعه هذا المساء في منتصف المشهد ، فوجب علي أنا أن أضربها بالسياط مما حمل إلي العزاء لأني شعرت بأني أضربه : هو ، وإني أنتقم من تلك القذارة جميعها ، في أية حالة سيعود إلي غداً صباحاً : أنتن لا تغتسلن أيتها النساء في هذه البلاد ، اذهبي بل روحي اجلبي لي حليبي » .

عندما ابتعدت «اديل» ، وقد بدا عليها الشحوب ، فتح الاستاذ فمه وقال فجأة :

- ألا يجلب هذا «المايو» لك الحر .

حدقت فيه الشقراء ، وفتحت معطفها ، خافضة عينيها إلى صدرها وأجابت :

- ربما تريد أن أنزعه ؟

عاود الاستاذ الكلام بعد مضي وقت قائلا :

- يخيل لي أن ليس لك رائحة .

قالت الشقراء :

- « وما يدريك في ذلك ؟ »

عندما رجعت «اديل» تحمل اناء الحليب سألتها الشقراء والنعاس آخذ بتلابيبها .

- هل مسك هذا ؟

ألقت «اديل» نظرة حاقدة على الاستاذ الذي كان يحدق بعينين واسعتين ، كاشفاً عن أسنانه كحصان . ومدت شفتيها : - « هذا ؟ هذا هو الاستاذ ، إنه فى صف الكهنة » .

فتحت الشقراء عينيها بينما هي تحتسي الخمر ، وخبأت وراء قارورة الحليب تكشيرة صفراء ، ولما انتهت قالت بجلال :

- « أريد أن أتأكد منه » ، ثم رفعت معطفها على كتفيها . « إذا

كنت ترغب حقاً يا سيدي فلنذهب إذن نبترد ، فهـذا «المايو» يجلب الحرارة في الواقع .

(ليلة عيد صفحات ١٠٠ - ١٠٥ «غالّيمار»)

* * *

أذكر ذات أحد من أيام الصيف ، في الوقت الـذي كانـت فيه «سيلڤيا» (Silvia) لا تزال حية ، «وايرين» (Iréne) شابة . كان يجب ان أكون في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمري ، وكنت بدأت أجـوب المناطـق المجـاورة ، كان عيد « بـوون كونسيغليو » (Buon Consiglio) في الأول من أيلول ، وكانت « سيلڤيا وايرين » لا تستطيعان الذهاب رغم مايقدم من حفـلات الشـاي لديها . وكثـرة زائريها ، وأصدقائها ، بسبب لست أدري أية قصة أثواب وخلافات ، لم تكونا ترغبان في مصاحبة رفقتها الاعتيادية ، والآن كانتا مستلقيتين فوق كرسيين مستطيلين ، وتحدقان في السماء فوق برج الحمام ، أما أنا في ذلك الصباح ، فقد غسلت جيداً عنقي وبدلـت قميصي ، وحذائـي وكنت قد عدت من البلاد لأزدرد قطعة طعام ، قبل أن أقفز إلى دراجتي كان «نوتو» (Nuto) قد أصبح في « البوون كونسيغليو » منذ العشية ، لأنه كان بين العازفين في الحفلة .

سألتني «سيلڤيا» وهي على السطح ، إلى أين أنا ذاهـب ؟ كان شكلها يدل على أنها ترغب في الثرثرة ، من وقت إلى آخر كانت تحدثني

هكذا مع ابتسامة فتاة جميلة ، وفي ذلك الزمن كان لدي شعور بأني لست خادماً ، إلا أني في ذلك النهار كنت مستعجلا كأني فوق جمر ملتهب فلماذا لا أركب العربة ،قالت لي سيلقيا فاصل باكراً . ثم نادت «ايرين» : « ألا تريدين أن تذهبي إلى « بوون كونسيغليو » أنت أيضاً ؟ «الانفليس» سيقودنا ويعتني بالحصان »

لم يسرني ذلك كثيراً . غير أني اضطررت أن أنحني . نزلتا وهما تحملان سلة الطعام ، ومظلتيهما ، وغطاء ، كانت «سيلقيا» ترتدي ثوباً ذا أزهار «وايرين» ثوباً أبيض صعدتا بحذاءيهما ذوي الكعبين العاليين وفتحتا مظلتيهما .

كنت غسلت جيداً عنقي وظهري ، وكانت «سيلقيا» بقربي تحت المظلة تفوح منها رائحة الأزهار ، كنت أرى : أذنها الصغيرة الوردية المثقوبة من أجل تعليق الحلقة ، ورقبتها البيضاء وفي الخلف رأس «ايرين» الأشقر كانتا تتحدثان فيما بينهما عن هؤلاء الشباب الذين يأتون لرؤيتهما ، كانتا تنتقدانهم وتضحكان ،وفي بعض الأحيان تنظران إلي وتقولان لي ألا أصغي ، ثم فيما بينهما كانتا تطلقان ان التوقعات عمن سوف يأتي إلى « بوون كونسيغليو » وعندما بدأنا بالصعود ، نزلت إلى الأرض كي لا أتعب الحصان وأمسكت « سيلقيا » بالعنان .

وفي طريقنا ، كانتا تسألانني عن مالك هذا البيت ، وتلك المزرعة ، ولمن تلك القبة . أما أنا فكنت أعرف مواصفات أعناب الكروم ،

ولكنني كنت أجهل أسماء المالكين - التفتنا لكي نشاهد قبة جرس «الكالوسو» (Calosso) فأشرت إلى الجهة التي يقع فيها الآن «المورا » (La Mora)

ثم سألتني «ايرين» عما إذا كنت حقاً لا أعرف أهلي ، فأجبتها اني كنت أعيش بطمأنينة على كل حال .وعندئذ حدقت بي «سيلفيا » من رأسي حتى أخمص قدمي وقالت بجدية «لايرين» إني غلام جميل وان شكلي يختلف عن شكل الناس هنا ولكي لا أغضب قالت «ايرين» إن لي يدين جميلتين أما أنا فخبأتها على الفور ، حينئذ مثل «سيلفيا» استغرقت بالضحك .

ثم عاودتا من جديد الحديث عن مشاحناتهما ، وعن الأثواب ووصلنا إلى «بوون كونسيغليو» تحت الأشجار .

كان هنالك عدد لا ينتهي من بسطات حلويات «النوغا» ، والأعلام الصغيرة ،والعربات والمرامي ،وكان يسمع من وقت إلى أخر صوت انفجار طلقات البندقية ، قدت الحصان إلى ظل أشجار الدلب ، هناك حيث يوجد أوتاد لربطه. حللت أحزمته ، وقدمت له العلف ، سألت « سيلفيا وايرين » أين السباق ؟ أين هو إذن ؟ لكن الوقت لما يكن قد حان ،ولا يزال هناك متسع منه ،وعند ذلك بدأتا في البحث عن أصدقائهما .كان علي مراقبة الحصان ، وفي الوقت نفسه مشاهدة العيد.

كان الوقت مبكراً ، و«نوتو» لما يبدأ ، إنما كان يسمع في الهواء صوت

تبوق وتزقزق وتصفر وتمزح كل منها لحسابه الخاص . وجدت «نوتو» وكان يشرب الليمونادة مع شبان «السيرودي» (Seraudi) . كانوا في الساحة وراء الكنيسة ومن حيث يرون التلة كلها ، وكروم العنب الابيض والحقول ، حتى البعيد ، ومزارع الغابات . أما الناس الذين كانوا في « البوون كونسيغليو » فقد أتوا من الأعلى ، من المناطق الأكثر ضياعاً ، والأكثر بعداً أيضاً، من البيعات من البلاد الواقعة ما وراء «المانغو» (Mango) حيث لا يوجد سوى ممرات الماعز وحيث لا يمر أحد أبداً . جاؤوا إلى العيد بالعربات والسيارات والدراجات ، وسيراً على الأقدام . كان المكان يعج بالفتيات والنساء العجائز اللواتي كن يلجن الكنيسة ، والرجال ينظرون في الهواء ، البورجوازيون والبنات اللابسات جيداً والأولاد اللابسون ياقات ، ينتظرون هم أيضاً الحفلة على عتبة الكنيسة . قلت «لنوتو»: إنـي جئـت مع « ايرين وسيلفيا » ورأيناهما تضحكان وسط أصدقائهما . وذلك الثوب ذو الأزهار كان حقاً الأجمل .

ومع «نوتو» ذهبنا لرؤية الخيول في اسطبلات الفندق ، فأوقفنا «بيزارّو» (Bizzarro) المخطة على الباب وقال لنا أن نقوم بالحراسة ، ثم هو والآخرون ، فتحوا قنينة أفرغ نصفها فوق التراب ، لكنها لم تكن من أجل أن تحتسى . أهرقوا الخمر ، التي كانت لا تزال مزبدة في جفنة . وحملوا «لايولو» (Laiolo) الـذي كان أسـود كالتـوت على لعقها ، وعندما لعق خمرته ، ضربوه بمقبض السوط أربع ضربات على

قائمتيه الخلفيتين لكي يستيفظ ، فأخذ يرفس خافضاً ذيله كما يفعل الهر. قالوا لنا : « صمتاً ، سترون اننا سنكسب السباق » .

في هذه البرهة وصلت «سيلفيا» ورفاقها إلى الباب وقال شخص سمين كان يضحك كل الوقت « إذا بدأتم بشرب الخمرة منذ الآن ، فأنتم الذين ستركضون بدلا من الخيول »

فبدأ «البيزاريو» يضحك ومسح عرقه بمنديله الأحمر وقال « إنهن الآنسات أولئك اللواتي عليهن أن يركضن لأنهن أخف منا نحن الآخرين » .

ثم ذهب «نوتو» ليعزف من أجل حفلة المادونا (Madone) وقف العازفون بالصف أمام الكنيسة ، وعندئذ خرجت السيدة المادونا فأشار إلينا «نوتو» بغمزة عين ، ثم بصق ، وتنشف بيده ، ووضع البوق (الكلارينيت). في فمه ، وعزفوا قطعة اسمعت أنغامها من في «مانغو» .

أما أنا فان ما كان يفرحني في تلك الساحة وسط أشجار الدلب كان سماعي صوت الأبواق ذات الفوهتين ، والكلارينيت ، ورؤيتي جميع الناس يجثون راكعين ، ويتراكضون ، والمادونا تخرج من الباب الصغير ، وهي تتمايل على أكتاف خدام الكنيسة ، ثم يخرج رجال الدين والأولاد مرتدين دروع الكهنة ، والعجائز ، والأناس الطيبين ، والبخور وجميع تلك الشموع ، وألوان الأثواب والفتيات ، وحتى رجال البسطات

والنوغا والمرمى ولعبة الخيول الخشبية ونساؤهـا جميعاً ، كلهم كانوا هناك للمشاهدة في ظل أشجار الدلب .

قامت «المادونا» بدورة حول الساحة ، وأطلق أحدهم المفرقعـات فرأيت «ايرين» وقد زادت اشقراراً ، تسد أذنيها ، وكنت مسروراً لأني قدتهما بنفسي بالغربة ، وبكوني في العيد معهما .

ذهبت لفترة ، أجمع العلف أمام أنف الحصان ، وتأخرت في تفقد الغطاء ، والأوشحة والسلة . ثم جاءِ دور السباق ، فعزفت الموسيقى من جديد ، بينما كانت الخيول تنزل إلى الطريق . أما أنا وبعين واحدة ، كنت أبحث دائماً عن الثـوب ذي الأزهـار والثـوب الأبيض فأراهما تتحدثان وتضحكان وماذا كنت لا أعطي ، لكي أكون واحداً من هؤلاء الشباب وأطلبهما للرقص أنا أيضاً .

السباق جرى مرتين ، مرة صعوداً ومرة نزولا تحت الدلب ، وكانت الخيل تحدث ضجة تشبه صوت فيضان «البيلبو» (Belbo) وامتطى ظهر «لا يولو» أحد الشبـان ممن لا أعرفهم ، وكان منحنياً فوق ظهره ، ويسوطه كالمجنون ، وكان بقربي «البيزار» الذي بدأ يشتم ويجدف ، ثم صرخ «برافو» عندما تعثر حصان آخر وسقط ورأسه إلى الأمام ككيس ، ثم جدف من جديد عندما رفع «لا بولو» رأسه وسبق ، نزع منديله عن رقبته وقال لي : « يا له من لقيط » وراح « السيرويون » يغنون ، ويتناطحون كالماعز . ثم أخذ الناس يزعقون من الجهة الأخرى » رمى

«البيزاريو» بنفسه في العشب ، ورغم ضخامة جسمه قام بدورة كاملة على نفسه . وضرب الأرض برأسه ، الناس جميعهم كانوا يهتفون إذ أن حصاناً من «نيف» (Neive) قد حاز قصب السبق .

بعد ذلك ، أصبحت لا أشاهد « ايرين وسيلفيا » قمت بدوري في المرمى ، وبأوراق اللعب ، وذهبت إلى الفندق أصغي إلى أصحاب الخيول يتشاجرون ،ويحتسون قنينة بعد أخرى ، والكاهن يحاول حملهم على التصالح فيا بينهم . كان البعض يغني وآخرون يجدفون ، وبعضهم الآخر يتناولون «المقانق» والجبنة ، أما الفتيات ، فكن بالطبع لا يأتين إلى هذه الساحة . في هذا الوقت كان «نوتو» والموسيقيون قد أصبحوا فوق منبرهم وباشروا العزف . كانت أصوات اللعب والضحك تسمع في جو صاف ، وكانت الأمسية رطبة ومضيئة وكنت أتيه وراء الخيام وأشاهد الستائر المصنوعة من الأكياس ترفع . والشبان يتمازحون ويحتسون ، والبعض منهم كان قد بدأ يرفع أثواب نساء البسطات . وكان الأولاد يتنادون ويتسارقون النوغا ، ويثيرون الضجيج .

ذهبت أشاهد الرقص فوق الأرض الخشبية في الخيمة الكبيرة . وكان «السيروديون » قد بدأوا بالرقص . وكان هنالك أيضاً شقيقاتهم ، أما أنا فلم أطل مكوثي وتطلعي لأني كنت أبحث عن الثوب ذي الأزهار والثوب الأبيض ، فرأيت الاثنتين معاً على ضوء «الاسيتيلين» تحيط كلا منهما ذراعا مراقصهما ورأساهما على كتفي هذين والموسيقى تعزف ، فتحملهم جميعاً على أجنحتها ، فكرت بنفسي قائلا : آه لو كنت «نوتو»،

ذهبت إلى مقربة من منبره، فملأ لي قدحاً كما فعل بالنسبة للموسيقيين الآخرين ثم وجدتني «سيلفيا» ممدداً في المرج بالقرب من رأس الحصان . كنت مستلقياً أعد النجوم وسط الدلبات فشاهدت فجأة وجهها المفعم بالحبور وثوبها ذا الأزهار بيني وبين قبة السماء صرخت قائلة : « إنه هنا نائم »

عندئذ نهضت بقفزة واحدة ، وكان رفاقهما يصخبون ويطلبون أن تبقيا وقتاً أطول بينما في البعيد وراء الكنيسة ،كان هناك فتيات يغنين، عرض أحدهم أن يرافقهما سيراً على الأقدام ، لكن كانت هناك آنسات يرددن : « ونحن ؟ »

ذهبنا على ضوء «الاسيتيلين» ، ومن ثم أخذت أتقدم ببطء في عتمة الطريق نزولا ، مصغياً إلى وقع حوافر الحصان . وفي هذه الأثناء كانت الموسيقى وراء الكنيسة لا تزال تشدو دائماً ، تدثرت «ايرين» بوشاح ، بينما كانت «سيلفيا» تتحدث عن الناس وعن الراقصين وعن الصيف ، وتنتقد جميع الناس وتضحك سألتاني عما إذا كان لي أنا أيضاً صديقة ، فقلت : إني كنت مع «نوتو» أشاهد ما يجري .

ثم قليلا قليلاً هدأت «سيلفيا» وفي برهة ما ألقت رأسها على كتفي وابتسمت لي ، وسألتني عما إذا كنت أسمح لها بالبقاء هكذا بينما أنا أقود العربة ، أما أنا فكنت ممسكاً بالأعنة أحدق بأذني الحصان .

(القمر والنيران صفحات ٢١٨ - ٢٢٣
«غالّيمار»)

«أذيات»

مهما بدا الأمر غريباً ، فاننا لم نتسلق أبداً إلى القمة ، على الأقل من ذلك الطريق . كان يجب أن يكون هناك نقطة ، نوع من ممر ، حيث الطريق ذات أرض مستوبة ، وتشكل القفزة الأخيرة من الشاطئ أو شرفة مفتوحة على العالم الخارجي من السهول.. لقد سبق لنا أن نظرنا من نقاط أخرى من التلال في «سوپرغا» (Superga) ، ومن «بينو» (Pino) إلى تلك الجهـة ، في وسـط النهـار. وكان «أوربست» (Oreste) أشار لنا دالا باصبعه على قريته القائمة في أفق ذلك البحر من الأماكن الوعرة المظلمة ، غير الواضحة ، المملوءة بالغابات . قال « أوربست » .

- الوقت متأخر حقاً ، في السابق كان المكان هنا مليئاً بالحانات .
فأجاب بياريتو (Pierretto) :

- إنها تقفل أبوابها في ساعة معينـة ولـكن الـذين في الداخـل يستمرون في تعاطي ملذاتهم .

فقلت :
- يستحق الأمر أن نذهب إلى التلة صيفاً ، لنتسلى ، والأبـواب والنوافذ مقفلة .

قال «أوريست» :

-« يجب أن يكون لديهم حديقة ، ومروج ، وأن يناموا في البستان »

قلت : « سيأتي وقت تنتهي فيه البساتين أيضاً وتبدأ فيه الغابات وكروم العنب » .

غمغم «أوريست» فقلت لبياريتو« أنت! أنت لا تعرف البرية ! إنك ترود طول الليل ولكنك لا تعرف البرية » .

لم يجب «بياريتو» ومن وقت إلى آخر كان ينبح كلب ، الله يعرف أين . فقال «أوريست» عند أحد المنعطفات :

« لو نتوقف ! »

طاف «بياريتو» عائماً من أفكاره وقال بحيوية : « وخاصة لأن الحيات تختبئ في الثرى وهي تخاف المارة . إن الرائحة التي تسود هي رائحة البنزين فأين هي البرية التي تفرحكم أنتم الآخرين ؟ » .

ثم هاجمني بشراسة معلناً بلهجته الحاسمة : « لو أن أحداً ذبح في الغابات ، هل تتصور حقاً ، أنت ، أن ذلك شيء من الأسطورة ؟ وإن الجنادب ستصمت حول الميت ؟ وإن دفقة الدم تساوي أكثر من بصقة ؟ » .

قال لنا «أوريست» وكأنه كان في حالة الراصد ؛ وبصق من القرف . « انتبهوا ها هي سيارة تصل »

ظهرت سيارة كبيرة مكشوفة ، لونها أحمر باهت ، وتوقفت منقادة وهي ترتج . بقي قسم من هيكلها في الظل ، تحت الأشجار ، نظرنا إليها مذهولين ، « أنوارها مطفأة » قال «أوريست» فكرت أنه يجب أن يكون في داخلها اثنان وتمنيت لو أني كنت بعيداً فوق الممر الجبلي ، ولو أني لم ألتق أحداً من الناس ، لماذا لم يذهبا نحو«تورينو» بسيارتهما الجميلة . لماذا لم يتركانا وحدنا في بريتنا ؟ قال لنا «أوريست» وهو يخفض رأسه ، ان نتقدم .

لدى مرورنا أمام السيارة ، كنت أتوقع أن أسمع وشوشات وحفيف أثواب ، وحتى ضحكات.وبدلا من ذلك رأيت رجلا وحيداً أمام المقود.وكان شاباً يحدق إلى السماء بوجه مضطرب .

قال «بياريتو» :« إن له مظهر الميت» .

وكان «أوريست» قد خرج من دائرة الظل ، فتقدمنا على غناء الجنادب ، وخلال بضع الخطوات تلك ، تحت الأشجار كنت أفكر بكومة من الأشياء . لم أكن أجرؤ على الإلتفات وكان «بياريتو» صامتاً إلى جانبي . أصبح التوتر فوق الاحتمال فتوقفت . وقلت :

« مستحيل ، هذا الرجل غير نائم »

سأل «بياريتو» : « لماذا أنت خائف ؟ »

- هل رأيته ؟.

- إنه نائم .

قلت : - لا أحد ينام هكذا في سيارة سائرة ، وكان لا يزال يرن في

أذني قول بياريتو العنيف : « لو أن أحداً مر ... » ثم التفتنا لننظر إلى المنعطف ، المظلم في الأشجار ، فاذا بحباحب يجتاز الطريق ، يلمع كلفافة تحترق وحدها .

« لنر إذا كان سيستأنف السير »

قال «بياريتو» : « إن الذين يملكون سيارة مشابهة يستطيعون أيضاً أن يصنعوا ما يحلو لهم . ويحدقوا في النجوم » أصخت السمع قائلا : « ربما كان شاهدنا » .

- « سنرى إذا كان يجيب » قال «أوريست» ، وأطلق صرخة عواء يمزق الآذان ، وحشياً ، بدأ كغمغمة وملأ السماء والأرض شبيهاً بخوار الثور ، وانتهى بقهقهة سكران ، فعاود الكلب نباحه ، وصمتت الجنادب مرتعبة ،ثم فتح «أوريست» فمه ، ليكرر صرخته ، فقال «بياريتو» « هل أنتم على استعداد ؟ »

هذه المرة ، صرخنا جميعاً ، وطويلا ، وبتموجات وترجيعات حادة صارّة ، وشعرت بقشعريرة عند فكرة أن صرخة مثل هذه يمكن أن تصل إلى كل مكان وعلى السفوح وفي أعماق الطرقات وفي الجذور كأنها شعاع منارة في الليل ، فتجعل كل شيء يرتج .

من جديد أخذ الكلب ينبح كالمجنون ، أصخنا السمع دون أن ننزع نظرنا عن المنعطف ، وكنت على وشك القول : « يجب أن يكون قضى من الخوف ... » عندما سمعنا قرقعة باب سيارة يغلق فجأة ، ولكن مضت برهة دون أن يحدث شيء والآن هدأ الكلب ، وفي

كل مكان تحت النجوم ، يلعلع غناء الجنادب ، كنا مثبتين نظرنا في ذلك الشريط من الظل ، قلت :

« لنذهب ، نحن الثلاثة ! »

(« الشيطان فوق التلال » : صفحات ١١٣ - ١١٥ «غالّيمار»)

تلك السنة ، كنت أذهب في الصباح لأقضي ساعة أو ساعتين على نهر «البو» . كنت أحب أن أعرق جيداً وأنا أجذف ، ثم أرتمي في الماء البارد ، الذي لا يزال حالكاً ، فيتسرب إلى عيني ويغسلهما ، كنت أذهب إلى هناك وحدي بشكل دائم تقريباً . لأن «بياريتو» (Pierretto) ، كان ينام في ذلك الوقت ، وعندما كان يأتي هو أيضاً ، كان يقوم بقيادة قاربي بينما أنا أمارس السباحة كنا نسير بقوة التجذيف ، ضد التيار ، تحت الجسور وعلى الضفتين المسورتين ، وننفذ من خلال السدود والنباتات ، تحت منحدر التلة ، كم كانت التلة جميلة ، عند العودة فوقنا عندما كنا ندخن غليوننا الأول ! ورغم أننا في حزيران ، فان نوعاً من الرطوبة كانت لا تزال تغلفها في تلك الساعة كنفحة رطبة منبثقة من الجذور .

وهناك فوق خشب ذلك القارب صرت أتذوق الهواء الطلق ، وأدركت أن اللذة التي يمنحها الهواء والتراب تمتد إلى أبعد من الطفولة ،

وإلى أبعد من حقل خضار أو بستان . كنت في تلك الأصباح أفكر في نفسي : « الأرض كلها مثل لعبة في الشمس » •

غير أن الرمالين لم يكونوا يلعبون وحدهم ، وقد غاصوا في الماء حتى أفخاذهم ، وكانوا يرفعون بتعب ملء مجارفهم ، رملا ويلقونـه في قاربهم الضخم ، وبعد ساعة أو اثنتين كان هذا يغوص ملآن إلى مستوى سطح الماء . وكان الرجل الناحل البرونزي اللـون ، وصدريتـه على جذعه العاري يدير القارب ببطء بواسطة رفش.كان يفرغ الرمل الذي جمعه في المدينة ، بعد الجسور . ثم يعود صاعداً ببطء.كانوا يصعدون جماعات تحت أشعة الشمس الساطعة ، ودائماً إلى أعلى ، وفي الساعة التي كنت أترك فيها النهر ، كانوا قد قاموا برحلتين أو ثلاث . وطول النهار ، وبينما كنت أتجول في المدينة ، وبينما كنت أتحدث ، وبينما كنت أتمتع بالراحة ، كانوا ينزلون ويصعدون ، يفرغون رملهم ، ويقفزون إلى الماء ، ويشدون تحت أشعة الشمس ، كنـت أفـكر بذلك خاصـة في المساء ، عندما تبدأ حياتنا الليلية ، ويعودون هم في القوارب إلى بيوتهم على ضفة النهر في الاحياء السفلى ، ويستلقون ليناموا ، أو يفرغون كاساً في «الاوستيريا» (L'Osteria) . من الأكيد ، أنهم هم أيضاً يشاهدون التلة والشمس .

وفي المرات جميعها التـي كنـت أقـوم فيهـا بجولـة مهرفة من التجذيف ، كنت أشعر طول النهار أني منتعش ، واني أستعيد نشاطي

بسبب اصطدامي بالنهر ، كما لو أن الشمس والثقل الحي للمجرى كانا يزودانني بفضيلة خاصة بهما ، قوة عمياء ، فرحة ، ماكرة كأنها قوة جذع أو وحش من الغابات ، وحتى «بياريتو» عندما كان يأتي معي كان يتمتع بالصبيحة . كنا ننحدر إلى «تورينو» سائرين مع التيار ، وأعيننا مغسولة بالشمس والغطسات، وكنا نتنشف ونحن مستلقيان، وكانت الضفاف ، والتلة والفيلايات وبقع الأشجار البعيدة ترتسم في الهواء . وكان «بياريتو» يقول ان من يعيش تلك الحياة في جميع الأيام يصبح حيواناً .

- يكفي أن ننظر إلى الرمالة .

- هم كلا ، قال - إنهم يعملون وأضاف فوراً : حيوانات من الصحة ومن القوة ... ومن الأنانية، من تلك الانانية اللطيفة الخاصة بالذين يسمنون .

فغمغمت :

- « ليست هذه جريمة »

-ومن يتهمك ؟ لا أحد مذنباً لأنه ولد ، الخطيئة في ذلك على الآخرين . دائماً على الآخرين ، نحن نركب القارب وندخن الغليون.

- لسنا حيوانات كفاية .

ضحك «بياريتو» وقال : «.من يعرف ما هو الحيوان الحقيقي ، السمكة الشحرور والحرذون ...وحتى السنجاب ... هناك من يقول ان في كل بهيمة روحاً .. روحاً تتعذب ... وربما كانت تلك الروح هي المطهر» .

ثم تابع : « لا شيء يشعر بالموت أكثر من شمس الصيف ، والضوء الكبير والطبيعة الوافرة الحيوية . نتنشق الهواء ، ونشم عبير غابة ونلاحظ أن البهائم والنباتات لا تبالي بنا إطلاقاً . كل يعيش ويفنى في ذاته . الطبيعة هي الموت ...

قلت :

- وما دخل المطهر في هذا؟

قال :

- لا وسيلة أخرى لتفسير الطبيعة ، أما انها لا شيء وأما أن الأرواح تسكنها .. »

كانت تلك نظرية قديمة ، وكان ذلك ما يثيرني لدى «بياريتو» لست مخلوقاً مثل «أوريست» الذي كان يرفع كتفيه أمام مثل تلك المزاعم ويضحك . كل ما يتعلق بالطبيعة يمسني ويحركني، وبما أني لم أتوصل إلى الرد عليه سريعاً بالمثل ، فقد فضلت الصمت ، محركاً المجذاف :

(المرجع السابق ص ١٤١ - ١٤٣)

وهكذا بقي «أوريست» هو أيضاً في «غريبو» (Greppo) فان يهرب بعض الأحيان على الدراجة ثم يعود،كانت التلة تبدو كأنها تشوى تحت شمس آب . وكانت نباتات زهر العسل والنعناع تشكل حولها جداراً غير مرئي . وكان رائعاً أن تجوب فيها الجهات جميعها . وعندما تصل إلى غابة البدائع القائمة على قدمها وتخرج منها،أن تعود أدراجك وتتوغل في الأدغال مثل حشرة أو عصفور يمكن أن تعلق أرجلها في تلك

الروائح وتلك الشمس ، بعد ظهر الأيام الأولى عاودنا النزول جماعة ، عن طريق النواتئ الوعرة،حتى الكروم المختنقة بالأعشاب ، ومرة بعدما أتممنا دورة كاملة حول التلة ، وصلنا من خلال أدغال العليق إلى كشك مظلم ، كانت تشاهد السماء من خلال شقوقه ، ورغم أنه كان هناك فيما مضى جنينة . وان هذا الكشك كان جناحاً من مسكن . فان المنحدر بوار بكامله . وكان «أوريست» «وبولي» (Poli) يسميان ذلك الكشك « المعبد الصيني » ، ويذكران الزمن الذي كان فيه لا يزال مغطى بالياسمين . أما في الوقت الحاضر ، فان تلك التلة قد افترست ذلك كله ، وعندما كنا نقترب سمعنا في نباتات القريص حركة سريعة صادرة عن عظاية أو فارة حقل ، غير أن ذلك التناقض لم يكن ليثير الحزن، فالأدغال كانت تبدو كذلك أكثر عذرية ووحشية ، وأصواتنا في وسط الأدغال لم تكن كافية لاختراقها. والفكرة القائلة أن الشمس الكبيرة في الغابات تشعر بالموت صحيحة تماماً ، هنا لا أحد يعيش : في السابق جربوا ثم عدلوا .

« لا أفهم لماذا أنتما الاثنين لا تقضيان الشتاء في هذا الكشك ، قال «بياريتو» «لغابريالا» (Gabriella) ستأكلان جذوراً . وستجدان راحة الحواس ، في الصيف، البرية تثير الاشمئزاز ، إنها عربدة من الأجساد والعصارات،وحده الشتاء فصل الروح ..

قال «أوريست» - ماذا يأخذك ؟

فأجابت «غابريالا» غاضبة :

- يا لك من مجنون !

ضحك «بولي» وتابع «بياريتو» : « لنكن صريحين ، البرية في آب وقحة ، ماذا تصنع لنا تلك الأكياس من الغلال، جميعها فيها عفن الجماع والموت . ولا أتحدث عن الأزهار والحيوانات في القيظ ، وعن الأجساد التي تنهار » .

ضحك «بولي» فصرخ «بياريتو» قائلا : « في الشتاء ، في الشتاء الأرض على الأقل تتوارى . فيمكننا أن نفكر بالروح » .

نظرت اليه «غابريالا» ونظرت إلى «بولي» ثم افتر ثغرها عن ابتسامة مقتضبة وقالت : « الشتاء ، أعرف كيف أقضيه . وأنا ، أحب هذا العبير الوقح » .

(المرجع نفسه ص : ٢٠٣ - ٢٠٤)

«الاسم»

من كان رفقائي خلال تلك الأيام، لا أتذكرهم ، يخيل لي أن ولدين شقيين - اثنين ، ربما شقيقين - كانا يعيشان في بيت من بيوت القرية يقع تجاه منزلنا ، أحدهما كان يدعى «پال» (Pale) تصغير «لباسكال» ، ومن الممكن أني أعطي اسمه للآخر . لكن كان هناك عدداً كبيراً من الصبيان من الذين كنت أعرفهم هنا وهناك .

ذلك «اليال» كان بشكل ضخماً غير قياسي ، بفم يشبه فم الحصان ، وعندما كان والده يضربه كان يهرب من البيت ولا يظهر نفسه خلال يومين أو ثلاثة . وبشكل أنه عندما يعود كان أبوه ينتظره بحزامه ليمعن فيه ضرباً من جديد فيهرب من جديد ، فكانت والدته تأخذ في مناداته بصوت مرتفع . وهي تلعنه ، من خلال تلك النافذة المثلومة المطلة على المروج . وعلى الغابات القائمة على ضفتي النهر ، باتجاه فوهة الوادي وفي بعض الأصباح كنت أستيقظ على عواء قوي متذمر صادر عن تلك المرأة من تلك النافذة . عدد كثير من الأمهات كن ينادين أولادهن على هذا الشكل ، غير أن الاسم الذي كان يسكت جميع الناس والذي كان في بعض الأحيان يرن مغيظاً كطلقات بندقية الصيادين. إنما كان اسم «پال» وفي بعض الأحيان ، كنا نحن نصرخ منادين به على سبيل التحدي أو الاستهزاء . وأظن أن «پال» نفسه كان يتسلى بالعواء به .

أذكر أيضاً يوم أن تسلقنا معاً الجهة الوعرة من التلة القائمة في مواجهتنا - سابقاً كنا في الساعات القائظة نرتاد النهر ونباتات الغزار - ولست أذكر إذا كنا وحدنا «پال» وأنا . من الأكيد أن رفيقي كان مكشوف الأسنان وكان أبرص الشعر وأتذكر ذلك لأني كنت أروي له أن الأسد الذي يعيش في أماكن وعرة ذو أسنان تشبه أسنانه ووبر وحشي . ذلك النهار كنا مبللين حتى البطن، وقد احترقت رقبتانا من شدة حرارة الشمس . وكانت بعض الضفادع تقفز من تحت الحجارة التي نحركها ،

وقد اكتسى عرقوبانا ببقع زرق . وكان السائل الأخضر لاحدى الأعشاب يسيل بين أسنان «پال» الذي اشتهى مضغها . تم في سكون الأشجار والماء سمعنا صراخ نداء تحمله الريح ضعيفاً ولكن واضحاً جلياً .

أذكر أني أصخت السمع ، كي أتيقن فيا إذا كنت أنا المنادى . إلا أن الصراخ لم يتكرر ، فتركنا بعد وقت قصير ضفة النهر وصعدنا المنحدر قائلين لأنفسنا اننا ذاهبان للبحث عن الخوخ الشائك ، ولكننا كنا نعلم ـ أو أنا على الأقل أعلم - أن هدفنا هذه المرة كان اقتناص الحيات، وبينا كنا نصعد الطريق بين أشجار العرعار ، ولكي استمد الشجاعة ، رحت أتحدث عن الأسود . كنت خلعت حذائي ، كما لو أني أتجنب بحركة ولد عاقل الأخطار التي يمكن أن تحملها البرهة التي يجب أن نقدم فيها حسابات في المساء، وكنت أطلق صفيراً خفيفاً .

ـــــ برطم رفيقي قائلا وهو يتوقف « توقف ، ليس هكذا تنادى الأفاعي » .

كنا قد تسلحنا بعصوين لهما شكل المذراة، وكان علينا أن نستخدمهما لتجميد الحيوانات وقتلها . كنا كثيرين تقريباً عندما ننزل إلى الماء غير أني كنت متأكداً أننا صعدنا الطريق وحدنا، نحن الاثنين ، كان «پال» بخلافي تماماً - يمشي حافياً فوق الحصى وفوق الأشواك دون أن يعير ذلك انتباهاً ، كنت على وشك أن أحدثه في ذلك عندما توقف

فجأة أمام دغل ، وبدأ يصفر بهدوء شديد منحنياً إلى أمام وهو يهزهز رأسه . كان الدغل يخرج من انحدار صخري ، ومن هناك كانت تبدو السماء .

قلت معكراً ذلك الهدوء : - كان من الأفضل أن ندرك الحية .

لم يجب صديقي واستمر في الهسهسة كالماء يسيل خيطاً من الصنبور ، أما الحية فلم تكن لتخرج .

وبغتة هزنا صوت هاتف تحمله الريح،شيء يشبه العواء أو اصطداماً عنيفاً ، فمن جديد ومن القرية كان يصل نداء،كان الصوت المعتاد المتذمر الغاضب «پال» «پال» !

ففكرت حالا بمن في منزلنا ، أما «پال» فتوقف ورأسه إلى أمام منتصباً على رجل واحدة ، وخيل لي أنه يؤدي إحدى تكشيراته الشيطانية . ولكن ما كاد الهدوء يعود حتى ارتفع الصوت وهو لا انساني في تلك الدفقة من الهواء من جديد صارخاً : «پال . پال ! » وحينئذ رمى رفيقي بحنق عصاه وقال بسرعة : « يا لهم من حيوانات ، لو أن الأفعى تسمع اسمي،بينما نحن نبحث عنها،فانها ستعرفني فيما بعد » .

فأجبت بصوت صغير : دعك من هذا » .

غير أن تلك العجوز الملعونة استمرت تنادي .كنت أتخيلها في النافذة تطل من وقت إلى آخر مع طفل رضيع فوق يديها ، مطلقة

صرختها كما لو أنها كانت تشدو ، وفي دقيقة معينة أمسكني پال بذراعي وصرخ : « انقذ نفسك » فاذا بنا ننطلق كالسهم نحو السهل وكنا نصرخ : «الأفعى» كي نثير الهمة،غير أن خوفنا - أو خوفي على الأقل - كان شيئاً أكثر تعقيداً، إنه شعور بأننا اعتدينا-ما يدريني - على قوى الهواء والحجارة .

ثم جاء المساء ، ونحن جالسان على قائمتي الجسر ، وكان «پال» صامتاً ويبصق في الماء،فقلت له :

- « انهم يتنشقون الهواء الرطب فوق الشرفة » .

كانت تلك الساعة التي تبدأ فيها نساء القرية جميعهن بمناداة بعضهن بعضاً. أما في هذه البرهة فقد سيطر هدوء عجيب ، ولم يكن يسمع إلا غناء بعض الجنادب .

فكرت في نفسي : « لم ينادني أحد بعد » ثم قلت : «لماذالا تجيب عندما ينادونك سيضربونك هذا المساء »

رفع «پال» كتفيه ، وقال وهو يمط شفتيه : « ماذا تريد أن تفهم النساء ؟ » .

- « هل صحيح أن الأفعى عندما تسمع اسماً تأتي فيما بعد لتبحث عنه ؟ ».

لم يجب «پال» فهو لشدة ما هرب من بيته أصبح صموتاً كرجل .

« إذن جميع حيات هذه التلال يجب أن تكون تعرف اسمك »

فأجاب «پال» مع ضحكة استهزاء : « واسمك أيضاً »

فأجبت فوراً : « لكن أنا ، أنا أجيب فوراً »

قال «پال» : « لا بأس ، هل تظن أن الأفعى تهتم بمعرفة ما إذا كنت ولدا عاقلا ؟ أو أنها تحاول قتل الذين يريدونها ..»

غير أن العواء المعهود بدأ يسمع من جديد ، فالعجوز ظهرت من جديد في النافذة ، وازت عجلتا طنبر ، وسمعت ضجة دلو في البئر . حينئذ اتجهت نحو المنزل ، بينما بقي «پال» فوق الجسر .

(ليلة عيد : صفحات ٣٤٩ - ٣٥٢
« غالّيار »)

«تعرية»

رجعت إلى الشلال حيث كنت أذهب ذلك الشتاء ، ولما كان يحصل في تلك الساعات القائظة ، جاءتني فكرة أن أتعرى . الأشجار والعصافير وحدها كانت تراني ، وكان التيار محصوراً في حفرة من البرية . إذا كان لك جسم فعرضه للشمس كثيراً . الجذور التي تنبت في الجدار تكون عارية .

كنت أستحم في بركة الماء ، حيث كنت أشعر بالراحة عندما أتمدد . كان ماء فاتراً يشعر بالتراب ، ومن وقت إلى آخر كنت أعود إليها ، كنت أشوي نفسي في الشمس طول الوقت ، ممدداً فوق العشب ، بينما القطرات تسيل فوق ظهري كأنها عرق ، لم يكن لجسدي رائحة اللحم بل رائحة الماء والتراب ، كنت أشاهد فوق رأسي ، بين رؤوس الأشجار المستنقع العاري للسماء ، كنت أبقى هناك حتى المساء .

لقد مضى حتى الآن عدة أيام كنت خلالها أقضي بعد الظهر عارياً تحت السماء . كنت أتعرض مفعماً بالتحرك . وأتسلق الأعشاب والتراب صاعداً من البركة ، وفي برهات نادرة - عندما كنت أرتمي والماء يسيل مني فوق العشب - كنت أفقد وعيي وأنسى جسدي . لا لأني أحس بهجران الزمن وكآبته ، حينما كنت طفلاً ، وعندما كنت أنزع ثيابي لأغتسل . أما الآن ، فبالعكس ، أتعرى بحماسة، نافذ الصبر لأجد نفسي من جديد أتعرى مرة أخرى ، وقلبي يدق بعنف . ولكن في تلك الكآبة يوجد قلق ، يوجد انتظار شيء ما ، يهز وحدتي ، أريد أن اقول اني أتعرى كما لو أني كنت أعرف أنهم يشاهدونني .

لن أتحدث عن الناس . وللمجيء إلى الشلال ، كنت أجتاز حقولا حيث بعض الفلاحين ، وبعض الفتيات المتناثرات يقومون بالحصاد ، ولكن لم يكن هنالك مجال للاعتقاد بأن أحداً ما يستطيع مفاجأتي في

تلك الحفرة المحصنة بالادغال والوهاد . كنت أسمع حتى صوت حركة السمنات والحراذين ، وكان لدي دائماً الوقت الكافي لستر نفسي ، أما قلقي فقد كان مختلفاً جداً ، ولم يكن يخلو من المتعة، وعدا ذلك، فان عريي المطلق كان يخيفني ويدهشني في كل مرة ، كما لو أن الوصول إلى هذا بدون أية فكرة يعتبر شيئاً ما ، وفي كل مرة أمد فيها فوق العشب رجلي الطويلتين ، وأقلب رقبتي أعرف أن الشمس تشاهدني ، وتفتشني كما أنا ، من رأسي حتى أخمص قدمي ، وأن لا فرق بيني وبين أي حجر وأي جذع ، وأية حية مبرقشة لولا الانزعاج الذي أشعر به عند التعري ، الآن، الماء والشمس صقلاني ودثراني ، ولهذا السبب أيضاً يخيل لي أن الطبيعة لا تتحمل العري البشري ، وأنها تعمل جاهدة شأنها مع الجثث ، على امتلاكه ، إنما يلزمها وقت ، وعلي أن أبقى ليلا نهاراً في أحضانها أما أنا فعلى العكس كنت أعاود الظهور وأتعرى نازعاً ثيابي . وهكذا أقاومها وفي الوقت نفسه أنصرف إلى أنظارها بكل اللذة التي أنا قادر عليها ، يوجد هنا بقعة من الأعشاب العالية المستنقعية تبقى دائماً في الظل حيث أتيه أحياناً ، الأعشاب تصل حتى بطني ، وقدماي تتعثران إلا أني لا أسعى وراء الرطوبة أتغلغل هناك لكي اختبىء وأخرج بغتة ، أكثر عرياً عن ذي قبل .

* * *

أصوات العصافير وزقزقاتها فوق رأسي تقول لي اني لست رقماً كبيراً في لغة الحساب ، هنا كل شيء يستمر كما لو كنت غير موجود ،

ومن أعماق تلك الوحدة ، وعندما أرفع نظري ، أرى بعض الغيوم تمر وترتجف في أعلى الأشجار ، كما لو كان بيننا هوة ، الريح لا تصل إلى هنا ، وما أكاد أستلقي ، حتى أنسى الحقول ، والطرق ، انفسي هو القريب جداً من بركة الماء ، أحدق في فراشة أو جذع شجرة ببلسه حرون ، كما أنفض عن جسدي التراب الذي غطيته به في بعض الأوقات ، يمر خيال غيمة ، وعندئذ يمتلئ الجو بالرطوبة وكل ما تحت الغابة يتغير : الأشجار التي كانت تختفي في أشعة الشمس تفلت ، وتشكل غابة ، وتنعكس في الماء ، وتلطف الألوان ، والنظر يميز فانهض حينئذ وأمتلئ نشاطاً،إنني عار كجذع شجرة تحت قشرتها ، عارٍ ورطب كالهواء الذي ألمسه ، وأرى أن السماء وراء الأشجار عارية هي أيضاً. إنني عار ومحتوى .

الظل يتسع ، وألاحظ الغابة أو الماء الراكد ، لا أستطيع أن أقول ما أرى وما أفكر به ، الكلمات هي : عشب وجذور إنها أحجار ووحل ، بريق نور - لا يوجد غير ذلك - غير أن جسمي لا يتقبلها.التغلغل في العشب ، التغلغل في الحجر ، ذاك جسدي سيقوله غير أنه لا يكفي تلك البقعة مادة لا اسم لها : يجب التحرك يجب الشعور بها ، يجب لمسها ، علي أن أقوم بمجهود كي لا أضم الجذور ، وأتسلق الغابة ، بين العليق والجذوع الخضراء والتنزه فيها. إني أتجلد وأنا أجس جسدي .

* * *

لو جاء أحدهم عندما كنت أرتمي على الأرض ، مبتلا ، فأظن أني لن أتحرك من مكاني. إني لا مبال كجذع شجرة . الماء والشمس يجعلانني أكثر دكنة يوماً عن يوم ، يعتقدان انهما بهذه الطريقة يمحوانني ويغطيانني ، لكنهما لا يعرفان أنهما بالعكس يحولانني إلى حيوان ، إنهما يجران جسدي إلى المقاومة ، والدفاع عن نفسه ، لقد سبق لي أن اعتدت عندما أصل والعرق يسيل مني تغطية جسدي بالطين الذي آخذه بجماع يدي ونشره فوق جسدي ، ثم البقاء في الشمس حتى يسيل . إنها طريقة لستر نفسي هي أيضاً ، وهكذا عندما أغتسل يكون لدي شعور بأني أخرج أيضاً من الماء أكثر عرياً .

ورغم أن ماء تلك البركة يبقى راكداً وموحلا يكفي أن أستلقي فيه لكي أشعر به نظيفاً ، يوجد في داخله عرق أكثر فيضاً وبرودة ، أبحث عنه منقلباً على ظهري ، متكوماً على نفسي ، كعلجوم تحت الجذوع الضخمة إنه يتعكر فوراً بالاناء ولا يكفي كل بعد الظهر حتى يعود إلى صفائه : حتى يمكنني القول ان الشمس تراكم فيه آحر أبخرتها . إنها صورة سماء ذات حرارة ثقيلة ، وفي كثافتها لا تعكس شيئاً أبداً . يخيل لي أني سأخرج مضرجا بالعرق فقطرات تسيل من صدري إلى فخذي .

بعد تلك الحمامات ، تصبح رائحة الوحل ، والمستنقعات أقوى . كل البقعة تتعرض للشواء في الشمس ، وتسمع خفقات أجنحة ، وأصوات واصطدامات ، ونداءات تظهر كأنها آتية من مكان لا يعرف

أين هو، مع أنها تبدو على أقرب من خطوتين، في تلك الأوقات انسى أني عار، أغمض عيني، والبرية كلها، والثمار والطرق والمنحدرات والمارة تتخذ من جديد في الجانب الآخر من الأشجار كياناً ومجالاً . كل شيء يتخذ من جديد إحساساً وطعماً وواقعه . كل شيء يأتي ويروح حولي أنا الذي في سباق الاشتواء في العشب .لماذا علي أن أتحرك إذا جاء أحدهم ؟

غير أن أحداً لم يأت إنما جاء الملل، هذا نعم، اغتنمت فرصة وجود الشمس والماء فصرت أمشي وأجلس في العشب، واستشعر وأعود إلى الماء ولكن لا يحدث شيء أبداً، ظل شجرة يستطيل قليلا حتى يغطي مرقدي الاعتيادي . وبدأت رطوبة مختلفة تنتشر فوق البركة، ورائحة الوحل والموت القوية تزداد الآن، أستطيع الاحساس بها كما أحس بجسدي، الذي هو أكبر وأكثر عرياً، ولا أحد يأتي، ولكن ألا أستطيع الذهاب أنا ؟

وعندما طرأت علي هذه الفكرة الخرقاء لأول مرة بقيت جامداً وإنما كنت أبتسم في نفسي، والآن ولكي أمتنع عن تلك الغواية صعدت من جديد راكضاً المنحدر الذي بواسطته أنزل إلى البركة وتوقفت بين الأدغال المنخفضة في أعشاب السهل. الآن لا مانع بيني وبين البرية، إني أشاهد ما وراء جذوع الأشجار وحقول القمح، فأرتمي في الأعشاب ووجهي في السماء، في الشمس الأخيرة . إني لا أخشى الاحتكاكات حتى مع الحشفات الباقية من أصول الزرع المحصود .

* * *

الحصاد انتهى ، البرية مقفرة ، أجتاز الطريق جميعها فلا ألتقي أحداً ـ البركة تنتظرني وأنا أتأسف على الأيام الهاربة، كانت جميلة تلك المخاطرة .

عدت أفكر بمستحمي «البو» ولا سيا بالنساء اللواتي يحسبن أنفسهن عاريات بمجرد أن يبدلن ثيابهن ، هؤلاء المستحمون يجيئون ويروحون على الاسمنت أو على الرمل ، ويتبادلون الاشارات ويتطلعون وراءهم ، ويتحدثون فيما بينهم ويحتدون كأنهم في صالون ، ثم يعرضون أنفسهم للشمس والبعض منهم يزلقون مايوهاتهم عن أكتافهم ليستمدوا منها مزيداً من الأشعة ، الناس كلهم يبحث بعضهم عن البعض الآخر ، ولا يوجد فيهم من يستطيع أن يذكر ما يفكر به الجميع - من أن الجسم شيء مختلف جداً لقد كانت لهم الشجاعة في أن يؤلفوا جماعة ، ولكن لم تكن لهم الشجاعة في أن يتصرفوا كما يشتهون .

في تلك الأوقات ، كنت أحب اجتياز الحقول تحت أنظار النساء والحصادين والعجول ، وبعض الناس الطيبين من الذين كانوا يجهلون إلى أين اتجه ، أو يستطيعون في كل وقت المجيء إلى الشلال لغسل وجوههم أو ارواء ماشيتهم ، وأن يكتشفوا بين الأدغال جسدي الأسمر ، هم على الأقل إذا أرادوا الاستحمام كانوا ينزعون ثيابهم بدون أن يلجأوا إلى تصرفات مصطنعة أو يبالوا بها ما عدا الأولاد ـ كنت أمر على مستوى نجوم القمح ذات السنابل الناضجة بلونها الشبيه بلون جسدي تماماً

وكنت أشاهد الأيدي السمراء تمتد والظهور تنحني، والمناديل تتخذ لوناً أحمر، إن لون ما يبدونه من أجسادهم يشبه لون التبغ، حتى ان قمصانهم وسراويلهم تتخذ لون التراب مثل قشرة الجذوع . إنهم أناس يستطيعون إهمال اللجوء إلى التعري ، إذ انهم عراة بأنفسهم . وعندما أمر بينهم ، أشعر بالثوب الذي ألبسه يصبح ثقيلا وكأني أرتدي ثياب الآحاد كالثور المغطى بالشرائط . كنت أرغب في أن يعرفوا أني أسمر تحت تلك الثياب واني بالاجمال عار .

* * *

كان ذلك ، وهناك على الأقل واحدة تعرفه :

كنت نزلت إلى الماء لأغتسل من التراب الذي علق بي. كنت أعوم سابحاً على ظهري ، ويداي على شكل صليب، وكنت أشاهد السماء الصافية في عيني ، لم آكن أفكر بشيء ، انتصبت وأنا أتمايل فوق البركة ، ثم انخفضت لآخذ الماء وأصبه علي ، فاذا بامرأة تجتاز البركة كانت كبيرة، امرأة متزوجة وعلى كشحها ملء باع من الأغصان ، أتت نحوي لا مندهشة ولا مبالية فرأتني منحنياً أداعب الماء ثم انحرفت مع حملها في الوادي متخبطة في الماء الفياض ، ثم اختفت بين الأعشاب. كانت حافية ، وقد رأيت ظهرها القوي يظهر من جديد إلى الشمس بين الخضرة، ثم سمعتها تقطع الأغصان أبعد قليلا .

كانت نزلت على الطريق ، التي كنت أعدو عليها عندما كنت

أرغب أن أرتمي بين الأعشاب، ولا شك أنها رأتني من فوق ، ورغم ذلك أكملت طريقها بهدوء ، ولم تفكر بأن تلتفت بعدما تجاوزتني .

كنت أصغي إليها وهي تبتعد وأنـا واقف هائر في الماء. كنت بدون شك منفعلا أكثر منها . وعلى جلدي كانـت تسمسق قطرات من الماء ، فخرجت إلى اليابسة غير قادر أن أصدق ما جرى . كيف لم أسمعها ؟ للمرأة خطى مختلفة عندنا . ولكن ذلك لم يكن ما أفكر به، بل كنت أفكر بأنها نظرت إلي بدون أية رغبة في الاستطلاع ، وبدون حياء كما تفعل تجاه شيء طبيعي . لو أنها توقفت ، ربما ضاحكة لتحدثني، لكان الأمر مختلفاً : كنت عندئذ سترت نفسي ، ولم أكن قد انفعلت كما أنا الآن . ورغم كل شيء كانت شابة فالنساء المتزوجات هنا يذبلن بسرعة .

* * *

الرطوبة تأتي ، فأشعر بأني أكثر عرياً ،عدت أفكر من جديد بعيني المرأة ، المكتسية بلون البرونز هي أيضاً ، هل كانت مكتسية بلون البرونز كلية ؟ بالتأكيد ، كانت كذلك ، فهي ليست بحاجة إلى ذلك ، يكفيها أن تكون في صحة جيدة ، وأن يكون لها أولاد أشداء ، هي تستفيد من الشمس بقدر ما يجب ، بينما هي تسير . الشمس نفسها التي تنضج الحقول وتجعلها مثمرة حتى ان العنب يتلون إذا خبيء تحت الأوراق . المهم أن تحت ذلك كان الجسد .

كانت ترتدي تنورة داكنة اللون لاصقة بفخذيها القويتين ، وتسير بدون احتياطات بين الحجارة والجذور . إني لا أزال أراها تمشي مستغرقة في الغابة وهي تفرق نباتات «الاكاسيا» التي تنمو عالياً، عظيمة ، وبما أنها كانت تغطي جدار الوادي وجذورها تمتد خارجة فقد تولد لدي شعور باني أرى ما تحت الأرض ومن فوق السماء ، هنا يوجد الجزء الخفي من الغابة ، المشاعر، الظلمات ، الأعماق، المرأة بعيدة في هذه الساعة . أما في النظر العامودي العاري الذي يقول لي ان للغابة أيضاً جسداً، مثلها مثل البرية جميعها مغطى بالتراب ، تراب متدثر هو نفسه بالأشجار ، عارياً حقيقياً كما نحن جميعاً ، نفضت جسدي الذي كان لا يزال محتفظاً بفتورة الشمس. أنا سعيد لأن المرأة رأتني .

* * *

عندما أعود سأتوقف للنقاش عند ملتقيات الطرق ، إذ يوجد دائماً من عنده شيء يقوله . البارحة ، رأيت «مرشينو» وقلت له من أين أنا آت . فقال : « يجب أن أستحم أنا أيضاً ». كان رجلا غامضاً ، ذا لحية كثة ، ونظرة قاسية . لكنه كان على شيء من اللطف والكياسة فلم يطلب أن يأتي معي .

قال لي انه سيذهب في الغداة إلى منبع البركة ، حيث الماء سلسبيل ، « ليتك تأتي ؟ » فاعترضت أني لا أحمل لباس الاستحمام «مايو» فأجابني «معي ، لست بحاجة اليه » .

ذهبنا في المساء إلى البركة ، حيث السد يشكل بحيرة ، وحيث الضفة عبارة عن متسع من الرمل ، ومغطاة بأشجار الصفصاف ، وممهدة بالشمس ،الأولادُ في تلك الساعة يقومون برعاية الماشية ، نزعنا ثيابنا ووضعناها في الظل ، ثم نزلنا إلى الماء ، كان ماء فضياً ، مدغدغاً ، ومرملا ، سبح «مرشينو» مطلقاً رشاشات من الماء كبيرة ، بينما أنا تمددت في الماء ، وتركت نفسي أطفو وأنا أحدق في السماء ، في مثل تلك الأوقات أفكر دائماً بالبرية ، برؤوس الأشجار بالحياة التي تكمل سيرتها .

عندما خرجنا من الماء ، لاحظت «مرشينو» أحسن مما فعلت سابقاً . كان يجب أن يكون قام بالحصاد نصف عار تلك السنة لأن بطنه وفخذيه فقط كانت باهتة . كان ذا شعر كثيف ، شعر مشقر من حرارة الصيف ، وكان يسير بهدوء وانحنى ليتمدد فوق الرمل ، فحولت نظري .

وفي الفترة الممتدة بين نقاشين كنا نعود إلى الماء ، لنبلل فيه رأسينا ، كان «مرشينو» يتركني أتكلم وأجيب كما يحلو له ، بعد صمت ، بعض الأحيان كان يتكلم بينما أكون أنا غارقاً في التفكير بشيء آخر . كنت أحب صدره المكتنز الذي لم يكن يتحرك حتى عندما يتنفس .

قال لي ، إني يجب أن أكون قد تعرضت كثيراً للشمس لفرط ما أنا أسمر اللون ، فأجبته « لم أفعل ذلك في أثناء العمل ، أما أنت فيجب أن تكون اكتسيت بلون البرونز كلياً - وإلا ماذا تشبه عندما تجد

الفرصة المناسبة ؟ » . كنا نتكلم وقفا رقبتينا فوق الرمل ، انتصب قليلا وأدرك النكتة ، وبعد برهة ، أجاب : « عندما يكنّ هنا ، لا يفكرن بنا » .

عدت بذاكرتي إلى امرأة الغابة ، وأدركت أن «مرشينو»قد صنع من أجلها ، حتى أني رغبت بقول ذلك له ، ولكن كيف أفعل ؟ فمارشينو لم يكن ليدرك معنى ذلك ، وكان حسناً منه أن لا يفكر بمثل تلك الأشياء .

* * *

توغلت بين الأشجار فوق مجرى الوادي في الظلال الحارة ، ومشيت من جديد على الطريق الذي سلكته المرأة ، سائراً بحذر ، البرية كانت أبعد من أن تكون بسيطة إذ يكفي التفكير كم من الناس مروا عليها ، كل ضفة ، كل دغل ، شاهد شيئاً ما ، لكل مكان اسم .

من خلال الفجوات بين الأوراق ، ألقيت نظرة إلى السماء ، تحت السماء كان السهل والتلة يشكلان بساطاً من الحقول ولحلاوتهما طعم العرق ، غير أن تلك الحلاوة تغرق أيضاً الغابة وجميع الأماكن غير المزروعة من الغابة ، وتكشف عريها ، هنا ، في هذه الأماكن الموحشة ، بعض الأحيان دغل - صخر - تكون الأرض والبرية عاريتين وتكشفان ذلك .

توقفت عند حدود الغابة ، ومن هنا تبدأ من جديد الأراضي المزروعة والجهود المتعبة . بعض باقات من المغث والأفاقيا في الشق

حيث الماء ، تؤلف كل ما هو بري . لا أستطيع التقدم لأني عار ، هذه المرة أدركت لماذا على الانسان عندما يريد نزع ثيابه أن ينزل إلى ذلك الشق ، ولماذا يلبس الفلاحون ثيابهم ليذهبوا إلى الحقول ، العمل ، يعني الباس الأرض .

لهذا السبب نظرت إلي المرأة بهدوء . كانت تعرف أني خبأت نفسي ، وأني كنت أقوم بنوع من الترفيه عن النفس ، كانت كما لو أنها ترى نفسها ، لم تعرف أني كنت فكرت بالخروج إلى الحقول ، لكل شيء اسم في البرية ، أما تلك الحركة فلا . ولا هي ، ولا «مرشينو» يفكران بها .

إنما أشعة الشمس تسقط هنا أيضاً ، اني أسمع العشب يتحرك ويرتجف ، وبعض العصافير تمر ، وطنيناً أكثر عمقاً يصم الأرض والسماء . تبدو البرية عارية وليست كذلك . وفي كل مكان منها يغطيها العرق بضبابة محرقة ، ساءلت نفسي عما إذا كان يوجد حفرة ، منحدر ، زاوية واحدة من الأرض لم تحفرها الأيدي ، وتقولبها . وكان يأتي من الحقول ما يشبه نفحة هادئة لا تنفذ إلى أسفل حيث الماء ، والبركة والعرق راكدة لا تقول شيئاً . أما أنا فاني أجد فيها الحياة ، في جميع الأيام . وثم أتمدد وجسدي أسمر مثل الميت .

(« ليلة عيد » ص ٥٣٢ - ٥٣٩
«غالّيمار»)

«مسؤوليات»

قالت متابعة حديثها وهي تنظر إلي :

« إني أسألك لا حباً بفضح الأسرار، هل إذا تزوجت ترغب في أن يكون لك أولاد ؟ » .

- لقد أنجبت أولاداً أنت ؟ الناس يتزوجون من أجل ذلك » أجبت ضاحكاً .

غير أنها لم تضحك ، بل قالت وهي تثبت نظرها في قدحي : « إن الذين ينجبون أولاداً يقبلون الحياة ، هل تقبل الحياة ، أنت ؟ »

قلت : « أن نحيا يعني أننا نقبل الحياة ، أليس كذلك ؟ الأولاد لا يغيرون شيئاً في المسألة » .

- قالت وهي ترفع عينيها من قدحي ، وتلاحظني :

« لكنك لم ترزقهم » .

- الأولاد هم مصدر للازعاجات أعلن «موريلي» (Morelli) غير أن النساء جميعاً يرغبن فيهم .

فقالت «مومينا» بقوة : - لا نحن

- لقد لاحظت أن اللواتي لا يرغبن في انجاب الأولاد يعبدن أولاد الأخريات ...

فقاطعته مومينا قائلة : - « ليس الأمر كذلك ، المسألة هي أن المرأة عندما يكون لديها أولاد ، تصبح مختلفة ، عليها أن تقبل كثيراً من

الأشياء وعليها أن تقول نعم ، هل ان الأمر يستأهل قول : نعم ؟ »

قال موريلي : «كليليا» (Clelia) لا ترغب في أن تقول نعم .

حينئذ قلت : إن الحديث عن هذا النوع من الأشياء لا معنى له ، لأن الناس جميعهم يحبون أن ينجبوا أولاداً ، ولكن لا يستطيع الانسان أن يفعل ما يحب . إذا أراد أحدهم أن يكون له ولد ، فما من شيء يمنعه إنما يجب الانتباه إلى المباشرة بالحصول في بادئ الأمر على منزل ، وعلى وسائل الحياة ، حتى لا يلعن بعد ذلك أمه .

تفحصتني «مومينا» فور أن أشعلت لفافة ، وعيناها نصف مغلقتين في الدخان ، وسألتني من جديد إذا كنت أقبل الحياة . وقالت انه يتوجب على المرأة التي ترغب في الحصول على ولد ، أن تحمله في أحشائها . وتصبح مثل إناث الكلاب وينزف دمها وتموت - أتقول نعم لهذه الأشياء جميعاً . إنما كانت تريد أن تعرف ما إذا كنت أرضى بالحياة .

قال «موريلي» - يكفي ما قيل حول هذا الموضوع - لا واحدة منكما حبلى »

احتسينا أيضاً قليلا من الكونياك . وأصر «موريلي» على أن يسمعنا أسطوانات موسيقية ، وخاصة أن خادمته تنام عادة نوماً عميقاً ، ومن الطابق الأعلى كانت تصل ضجة صماء تحدثها الأقدام وصخب عال : « هم أيضاً يحتفلون بالكرنفال » قال موريلي بهيئة وقورة إلى درجة أني

انفجرت ضاحكاً، لكن تلك القصة عن قول : نعم،كانت قد أثرت فيّ تأثيراً عميقاً .

(« بين النساء وحدهن » ص ٢٩٨ - ٢٩٩
«غاڵيار»)

الآن ما من شك أبداً ، لقد وصل إلينا ما كان حل في أوروبا منذ سنوات ، المدن والحقول منذهلة تحت قبة السماء ، تجتازها الجيوش ، والأصوات المخيفة ، لم يكن الخريف وحده يموت في تلك الأيام . ففي تورينو ، وفوق كومة من الأنقاض ، رأيت جرذاً سميناً يتدفأ بهدوء تحت أشعة الشمس . بهدوء إلى درجة أنه لم يحرك رأسه ، ولم يقفز عندما اقتربت . كان واقفاً على قوائمه ينظر إلي ، لم يكن يخاف الناس .

جاء الشتاء وأنا كنت خائفاً ، كنت معتاداً البرد - مثل الجرذان ، مثل الناس جميعهم - كنت معتاداً النزول إلى الملجأ وأن أنفخ بين أصابعي ، لم تكن لا المصاعب ولا الخرائب ، وربما حتى ولا الموت هي التي تسقط من السماء ، بل السر الذي عرف مؤخراً من أنه يمكن أن توجد تلال لطيفة ، ومدينة غارقة في الضباب ، وأيام مقبلة جميلة ، وفي الوقت نفسه ، وعلى بعد خطوتين تجري الأشياء الوحشية التي يتحدثون عنها ، المدينة أصبحت أيضاً أكثر توحشاً من غاباتي . ها هي تلك الحرب التي كنت أعيش في منأى عنها ، مقتنعاً بأني رضيت بها ، واني كونت لنفسي سلاماً مراً ، يشتد وطيسها ، ويقوى عضها ، وتبلغ

الأعصاب والدماغ ،بدأت أنظر فيما حولي وأنا أرتجف كأرنب برية تلاحقها الكلاب ، كنت أستيقظ في الليل قافزاً . كنت أفكر «بتونو» (Tono) ، أو بسخريات «فونسو» (Fonso) ، وبالمؤمرات ، وأعمال التعذيب ، والمبثات الحديثة . كنت أفكر بالبلاد التي يعيشون فيها على هذا الشكل منذ أكثر من خمس سنوات .

حتى الصحف - كان لا يزال هناك صحف - كانت تسلم بوجود مقاومة هنا وهناك . في الجبال ، وأنها مستمرة ، كانوا يعدون ويتوعدون بالعقوبات والتبرئات ، والتعذيب ، كانوا يقولون : « أيها الجنود الهاربون ، الوطن يفهمكم ويدعوكم . كما كانوا يقولون : لقد أخطأنا حتى الآن ، ولكننا نعدكم بأننا سنتصرف أحسن فيما بعد ، تعالوا أنقذوا أنفسكم ، تعالوا أنقذونا ، رحمة بالله . أنتم الشعب أنتم أولادنا ، أنتم قذرون كجيف الحيوانات، أنتم خونة ، أنتم فارون من الجيش » ولاحظت ان الكلمات الجوفاء التي كانت تستعمل سابقاً أصبحت لا تضحك ، القيود ، الموت ، والآمال المشتركة أدركت معنى هائلا ويومياً . وما لم يكن قبلا سوى كلام في الهواء ، أصبح في الوقت الحاضر ينفذ إلى الأحشاء . هناك شيء بعيد عن الحياء في الكلمات ، وفي بعض الأوقات تقت إلى أن أشعر بالعار .

في الواقع ، كنت ألوذ بالصمت . كم تمنيت أن أتوارى مثل جرذ كنت أقول لنفسي ان الوحوش لا تعرف ماذا يجري ، كنت أحسد

الوحوش . في البيت حيث كنت أعيش كانت للنساء حسنة ، ألا وهي أنهن كنّ يجهلن كل شيء عن الحرب . وقد حققت «الفيرا» (Elvira) تلك القوة التي هي قوتها بسرعة .

وفي الوقت الحاضر حتى البرد يرجعني إلى المنزل ، لقد كان من اللطيف بالنسبة لي تقريباً أن أعود اليه من تورينو ، من الحفلة الخضراء ، من النزهات الفارغة فوق التلة الصفراء العارية ، ناسياً لبرهة القلق الأبدي في دفء حجره ، والخف الرتيب ، من هذا أيضاً أردت أن أشعر بالعار .

في تلك الصبيحات من تشرين الثاني ، كان «دينو» (Dino) يأتي ،ونعمل ،وكان يتوقف فجأة في منتصف درسه ، ويبدأ في رواية الاشاعات الأخيرة ، وما قاله أحد المارة ، أو الالمان ، أو الوطنيون في المستنقعات ، لقد أصبح يعرف القصص الأولى عن الضربات غير المعقولة ، والحركات المشبوهة والجاسوس الذي نفذ فيهم حكم الاعدام ، فاذا دخلت «الفيرا» (Elvira) لاذ بالصمت ، ولدى كل خبر ، كنت أفكر بالأسطورة الواسعة التي كان يعدها أثناء أيام النهار ، وأن الولد الذي ينذهل من كل شيء يستطيع أن يعيش هناك دون أن ينذهل، وبسبب الصدفة وحدها لم أكن ولداً مثل «دينو» ، فقد كنت كذلك منذ عشرين سنة مضت واندهالاتي في ذلك الوقت لم تكن تبدو تافهة إذا

قابلناها بانذهالاته ، قلت « هكذا ، إذا مت في هذه الحرب ، فلن يبقى مني سوى ولد واحد » وسألته :

« لماذا لا ترتدي بذلتك البحرية البيضاء » .

- « سأرتديها عندما أذهب إلى المدرسة ، متى سيعيدون فتح المدارس ؟ »

كانت الفيرا ، التي إذا ما انتهى الدرس ، تناديه إلى قرب خزانة الصحون ، كي تعطيه حلوى ، تريد أن تعرف إذا كان سيعود إلى المدرسة ، وإذا كان له شقيقان ، وإذا كان يذكر أباه ، فكان دينو يجيب بغمغمة وفي الوقت نفسه يسدل جفنيه ، متفجراً ، قلت «لألفيرا» :

- «يبدو لي أني عندما كنت لا أزال غلاماً ، كنت أمسح وجهي بالمنديل إذا ما قبلني أحد الناس » .

قالت : « إنهم أولاد هذا الزمن ، الأم تعمل ، فيشب الطفل كما يستطيع » .

قلت : « لا يوجد بين أولاد الفلاحين من لا تعمل أمه.وقد كان الأمر كذلك في جميع العصور» .

قالت «الفيرا» - أمه تعمل ممرضة وهما يعيشان في حانة صغيرة .

- «كم أشتهي أن أحصل على واحدة ، مع كل هذا الذي يجري » .

منذ أيام الدموع «والفيرا» لم تكشف عن نفسها ، أما بالنسبة لي ، ومع كل ما جرى ، فانه من السهل علي جداً أن أثور وأصرخ : أموات ، حرائق ، نفي ، الشتاء والمجاعة ، كان من اللازم أن يكون لدينا وقت نضيعه لنتناسى آلام القلب ، غير أننا لم نتحدث إطلاقاً عن الحب ، عن حبها الغريب ، أزهار الحديقة قد يبست ، والحديقة كلها مهجورة يابسة . وفي أحد الأيام هبت ريح شديدة فكنست كل شيء ، قلت «لالفيرا» إن في امكانها أن تشكر السماء لكونها تملك بيتاً وناراً وحساء . وأن تهنئ نفسها لأن هنالك من هم أتعس حظاً منها ، قالت متأثرة :

- لقد رأيت دائماً أن الانسان تلحقه الويلات إذا ما عدا وراءها باحثاً »

- مثلا ايطاليا بدخولها الحرب .

- ليست القضية بهذا الشكل ، يكفي أن يؤدي الانسان واجبه ، أن يؤمن ...

قلت - « ويطيع ، ويقاتل ، كما يقول الدونشي خاصتك ، سأحمل غداً المدية وجمجمة الفاشستيين . وسيكون الأمر تاماً » .

نظرت إلي هلعة ، وهي تغمز بعينيها ، شيء غريب أن يبقى الوقت جميلا ، بعض ابخرة من الضباب تملأ الجو في الصبيحات جميعها

ثم ترتفع شمس ذهبية ، كنا في شهر تشرين الثاني ، وكنت أفكر بالجندي في وادي «الآرنو» : هل نجح في الرجوع إلى منزله وكنت أفكر بجميع الآخرين ، بالبائسين ، بالمشردين دون مأوى ، وشيء مفرح أن الطقس لم يتغير ، كانت التلة جميلة ، وتبدو فيها الأرض في الوقت الحاضر قاسية ، مغبرة ، عارية ، وفي الغابات يقع الانسان على أسرة للنوم مصنوعة من الأوراق المخشخشة . كنت أفكر غالباً أني أستطيع اللجوء اليها إذا اضطرتني المناسبة ، لم أكن أحسد غلمان الثامنة عشرة أو العشرين . كنا نشاهد اعلانات عسكرية في «پينو» أيضاً. جمهورية الفاشستيين الجدد تعيد صنع سلاحها فالحرب كانت تلح .

بعد ذلك فتحت المدارس أبوابها من جديد ، فجاءني أحد زملائي ينبهني أنه استاذ اللغة الفرنسية ، وهو رجل سمين وحزين ، لم أثرثر معه منذ بعض الوقت ، وجدته جالساً في قاعة استقبالي ، ينتظرني مع «الفيرا» .

نظر «كاستيلّي» (Castelli) حوله ، وقال ان المكان هنا جيد حقاً ، إنه يعيش في غرفة بالمدينة ، ومؤجروه ذهبوا إلى الريف ، تاركينه وحده في شقتهم الكبيرة . « هنا لديكم على الأقل مدفأة » قال دون أن يبتسم .

بعد ذلك ذهبت «الفيرا» تصنع لنا القهوة . فتحدثت عن كلبتنا ومزحت ، وكان كاستيلي ، يصغي ، ويبدو أنه في مكان آخر ، كواحد

تشغله فكرة وراء رأسه . كان سميناً ومتعثراً إلى درجة أنه أثار في نفسي الشفقة هذه المرة أيضاً .

عندما أحضرت القهوة لم يكن قد فك أزرار معطفه بعد . قال لافيرا « قليلا جداً قليلا جداً ، لا أستحقها » كنت أنظر إليه بينما كان يفرغ كأسه وأقول في نفسي «المسكين ، رب أسرة حقيقي ، لماذا يعيش إذن وحيداً ؟ » على الأسكفة وبينما هو يستأذن قلت له : « إذن كاستيلي ! ماذا على ما لا يرام ؟ »

لم يتكلم إلا في الخارج ، حيث القر ، كنت قد ارتديت معطفي وخطونا أربع خطوات فوق الممشى ،فسألني عما إذا كانت الحرب ستنتهي قريباً ، وكان قد وجه السؤال نفسه في الصالون ، فقلت له :«لن يجندوك ، فأنت أكبر مني سناً » .

غير أن «كاستيلي» لم يكن يفكر بالتعبئة. قال مغمغماً وهو نصف ساخط : « يا لهم من مهرجين ! » لم يكن ما قاله إدانة سياسية . فهولا يتعاطى السياسة ، كان يعيش وحيداً . ولكن قيل له ان مجرد تعاطي التعليم يعني قبول الجمهورية ، والاعتراف بالحكومة الجديدة . ثم قال فجأة : « لو أننا نعرف على الأقل الأيدي التي تمسك بنا » قلت له:

« إنهم الذين في الطليعة ، كما هو معروف،إنما هم ناشطون جداً في الوقت الحاضر».

فقال كاستيلي ملحاً :

ـ « أجل ، ولكن كيف سينتهي الأمر ؟ »

ـ من أين تأتيك هواجسك ؟

كنت أتوقع الأمر. إنه زميلنا معلم الرياضة وهو فاشستي سابق ورئيس فرع . كان لا يخفي أنه عازم على طلب إجازة انتظار كي لا يعرض نفسه للاتهام . إنما كان يتهم جميع الآخرين بالانتهازية . والخفة المذنبة فيما يتعلق بالحرب الفاشستية وقد قال : « يجب اتخاذ قرار ، يجب وضع الوطن فوق المصالح الشخصية » .

سألت كاستيلي : « هل ما يقوله « لوتشيني » (Lucini) حسن . إن ذلك يعني انه يتجسس أو أن الحرب قد انتهت حقاً » .

ندمت فيما بعد على أني قلت له ذلك ، فقد ذهب منحني الظهر وفهمت أن قلبه قد ملئ بالهواجس ، والخوف ، وبألف شك وشك . لقد ذهب مطأطئاً بينما أنا أفكر « بتونو » .

لم نتحدث عن كل هذا في الكلية . رأيت من جديد زملائي « ولوتشيني » وعادت الدروس إلى نشاطها ، وكان بعض تلامذة الصفوف العليا متغيبين ، وكان من غير المعقول مشاهدة « البيادق » على البوابة . والاصغاء إلى ضجيج الصغار ، واعطاء وظائف ، كان للجرس رنينه السابق ، وكنا ننتفض كل مرة نسمعه ، كان البرد في غرف

الدرس يضطرنا إلى الاستمرار في ارتداء معاطفنا ؛ كان الواقع يحمل على الشعور بالانتقال ، وبالحياة المؤقتة ، وباشرت من جديد تنـاول طعامي في مطعمي المفضل ، والسير بخط مستقيم على طريقي ، متجنباً اللقاءات ، لألتقي « كات » .

وفي المساء ، كنت وإياها ودينو ، نرجع إلى التلال قلت «لكات» :

« آه لو كان لدي مال ، آه لو كنت أستطيع التخلص من التبعية للآخرين ، وأن أنزوي في منطقة ريفية ما ولا أتحرك منها »

- «يخيل لي أن لديك كل ذلك - قالت «كات» - هل تعرف من لديهم أكثر ؟ »

شعرت أني أكتسي بالاحمرار ، فقلت بسرعة .

- « إنها تمنيات ، وليست من قبيل الاحتجاج والرفض ، كنت أمزح » .

قالت :

- أنت ، إنما أنت ترغب في أن لا تفكر بهذه الحرب ، ولكنـك لا تستطيع تحقيق رغبتك .

سرنا خطوات في هدوء ، وكان دينو يخبُ على الطريق بقربي ، قلت :

« أرغب فقط في أن ينتهي كل هذا » .

رفعت «كات» رأسها بحيوية دون أن تقول شيئاً فتابعت متمتماً :
« أجل ، أعرف أن الوسيلة الوحيدة ، عدم التفكير في واقع الأمر ، والعمل ، مثل «فونسو» والآخرين:الغطس في الماء كي لا نشعر ببرودته . ولكن ماذا لو كنا لا نهوى السباحة ؟ أو كان الوصول من الجهة الأخرى لا يهمنا ؟ جدتك كانت على صواب عندما قالت : عندما يكون لديك خبزك فانك لا تتحرك » .

ظلت «كات» صامتة .

« ادلي إذن برأيك أيتها السيدة الصغيرة »
رمقتني «كات» بطرف عينها ، مخفية ابتسامة :
« لقد سبق لي أن قلت لك ما أريد » .

خفضت نظراتها نحو «دينو» دليل شك وعلاقة أو إشارة سريعة إلى شيء ما . أو ربما ردة فعل ، أو وعد وربما قالت « لو أنت قمت بدورك ، فيجب أخذ «دينو» أيضاً بعين الاعتبار» ، كنت أفكر بذلك منذ برهة ، يجب أخذ «دينو» بعين الاعتبار ، غير أن تلك أشياء لا يمكن أن توضع في كلمات . لا شيء سوى شك بسيط كان يثيرني ، كنت أفكر : « وبعد ماذا هي تتصور ؟ إني لا أكترث بدينو ؟ »

وقلت بصوت عال :

- « أن يعمل الانسان أو لا يعمل قضية صدفة . لا أحد

يبتدىء من البداية . الوطنيون والسريون كلهم من الفارين من الجيش أو المتهربين من التعبئة وقد أصبحوا موضع اتهام منذ زمن طويل . إنهم شبيهون بجماعة سبق لها أن سقطت في الماء .

- يوجد كثيرون ليسوا موضع تهمة - قالت كات - هناك من يغرقون وكان بامكانهم أن يمكثوا في بيوتهم هادئين ، أنظر إلى «تونو» .

فقلت صارخاً : - ولكن هي تلك النقطة التي كانت فيها العجوز على حق . إذ هناك مصير طبقة . الحياة التي تقضينها تقودك اليه ، والمستقبل في المصانع ليس عبثاً ، بدون فائدة ، لهذا السبب أنا معجب بك .

لم تقل «كات» شيئاً، كانت تبتسم .

(« البيت فوق التلال » ص ٢٦٩ - ٢٧٤ »)

«غاليمار»

الاعجوبة الطاغية

١٢كانون الأول

كل فنان يحاول بيان آلية تقنيته ليرى كيف هي مصنوعة وينسج على منوالها عند الحاجة ، غير أن الأثر الأدبي لا يلقى النجاح إلا إذا كان فيه بالنسبة للفنان شيء من العجائبية، شيء طبيعي :

إن تاريخ فنان ما ، يتالف من التفوق المتتالي للتقنية المستخدمة في العمل الفني السابق عن طريق إبداع يفترض قانوناً جمالياً أكثر تعقيداً . والنقد الذاتي وسيلة للتفوق على الذات ، والفنان الذي لا يحلل ولا يهدم باستمرار ، تقنيته هو رجل مسكين (راجع ٨ تشرين الثاني ٣٨)

* * *

الأمر يسير على هذا الشكل في جميع النشاطات ، إنها جدلية الحياة التاريخية . إنما في الفن كما في الحياة ، ومنذ أن كانت «الرومنطيقية» يوجد في تلك الجدلية خطر دائماً حيّ :هو خطر أن يختار الفنان لنفسه حقل الغرابة ليضمن لها (أي لنفسه) الابداع الفوري في الفن الهرمسية[1]، وفي السياسة، العرقية - الدموية، بينما الأعجوبة التي

---

(١) نسبة الى هرمس الذي هو حسب اعتقاد اليونان مخترع الكيمياء السحرية « المعرب »

تحفز الابداع يجب أن تولد من ذاتها ، من عائق يقدم بشكل لا إرادي في سياق الجهد نفسه المبذول من أجل التوضيح ، لا شيء أقبح من أن يتلاعب الفنان أو رجل السياسة ، بالعجائبية غير المعقولة بكل برودة .

(« مهنة الحياة » ص ١٣٨
«غاليمار»)

١٠ شباط

لدى مروري بالقطار أمام بحر «البيناد» (Pinede) ، وهو بحر منخفض ومظلم ، رأيت الأنوار الصغيرة البعيدة ، وفكرت أن ذلك المشهد ، ذلك الواقع ، مهما ملأك بالتذبذب « في القول » وبالقلق مثل ذكرى من ذكريات الطفولة وليس بالنسبة إليك لا ذكرى ، ولا شيئاً ثابتاً من خيالك ، وهو يوحي اليك لأسباب أدبية طائشة أو بالقياس ، ولكنه لا يحتوي مثل الكرمة أو مثل إحدى تلالك على دلائل معرفتك للعالم ، ينتج من ذلك أن كثيراً من العوالم الطبيعية (بحر ، غابة ، أرض ، جبل ، الخ ..» لا تخصك لأنك لم تعشها في الوقت المناسب ، وانك إذا أردت التعبير عنها شعرياً لن تتمكن من التحرك فيها بتلك الثروة الخفية من التضمينات والمعاني ، والمبررات ، الثروة التي تعطي لكون ما قيمته الشعرية ، وعليك أن تقول الشيء نفسه بالنسبة إلى قطاع العلاقات الانسانية ، وللكائنات البشرية. وحدها تلك النماذج

والأوضاع التي انبثقت شيئاً فشيئاً منك ، والتي انفصلت على عمق معرفتك الأصلية ، كان لها الوقت (حتى الآن) لتُحفر في فكرك وتنشر تلك العروق المتعددة الخفية والتضمينية التي تهب الدم والحياة للابداعات ، بالاجمال أنت لا تستطيع،لمجرد رغبتك،الاهتمام شعرياً ببلاد معينة أو بمحيط معين ، وتحملها على أن يعيشا ، إلا بتعزيهما إلى قياس القوالب (غير الكافية) الخاصة بطفولتك وشبابك.أنت لا تستطيع إذن (على الأقل في هذه اللحظة) التخلص من عالم قد سبق له أن أصبح كامناً خفية في طبيعتك التصورية،وكذلك في الحياة العملية ، فأنت لا تستطيع التخلص من الحدود التي عينتها طبيعتك الارادية . تعيينا حصل بجزئه الأكبر خلال التكيّف مع العالم . بقي أن نرى إذا كان عليك في الميدانين الفاعل والمبدع ، أن تقتصر على أن تستجلي وتفهم دائماً وبأكثر عمقاً الحقيقة التي سبق أن أعطيتها ، أوكان من المفيد أن تجابه باستمرار أشياء وصوراً ومواقف ، وقرارات غريبة عنك ولا شكل لها . وأن تستخرج من هذا الاصطدام ومن ذلك الجهد تطوراً ونمواً مستمرين لطاقاتك . القضية بكاملها تنحصر في معرفة ما إذا كنا عند حصول المعرفة الأولى سنعيش روحياً من المداخيل . أو إذا كنا لا نستطيع إنماء رأسمالنا في كل يوم . يظهر من البديهي مهما كان الأمر متعباً وشاقاً ، ان الطريقين يمكن أن يتلاقيا وان تجربة طفولية مخاضة في سن البلوغ ستكون نقطة انطلاق مختلفة وجديدة .

١٧ أيلول

سهل في وسط التلال ، مؤلف من مروج ، وصفوف متتالية من الشجر تخترقها فرجات واسعة ، في ذات صباح من شهر أيلول ، عندما ضبابة منتزعه من الأرض،هذا السهل يسترعي انتباهك بصفته البديهية التي اكتسبها في الماضي كمكان قدسي ، وفي الفرجات : أعياد،أزهار ، أضاحي، على أطراف الأعجوبة التي تنادي وتهدد من بين الظلال القدسية . هناك على الحدود بين السماء والشجر يمكن أن ينبثق الاله .

المكان العجائبي ، ليس المكان المنعزل أو الذي قبيل الجزار أو ما شابه ذلك (صحح ١١ أيلول) بل هو اسم نكرة ، كوني كالمرج ، أو الغابة ، أو المغارة ، أو الشاطىء أو الفرجة في الغابة ، وهو في لا محدوديته يذكر بجميع الغابات والمروج الخ ... ويحييها جميعها برعشته الرمزية .

هناك نرى من جديد ، كيف أن العودة إلى الطفولة توازي إرواء الظمأ إلى الغرابة،الأعجوبة ، المرج ، وشاطىء الطفولة ، ليسا شيئين واقعيين بين كثير غيرهما ، بل هما بالتأكيد «المرج» «الشاطىء» كما انكشفا لنا في المطلق ، ومنحا شكلا لخيالنا الصاعد ، ثم ان تلك الأشكال الصاعدة قد تغذت وزادت غنى بالرسوبات المتعاقبة للذكرى . ولذاك قيمته كثروة شعرية . وهو يشكل شيئاً مختلفاً عن معناها الأصلي كأعجوبة .

(المصدر نفسه)

ذكرى قمة بلغت في الماضي وحقل أزهار الربيع الذي كان بالنسبة إليك طفلاً ، الطبيعة جميعها - تحركك إلى الأعماق ؛ اليوم لأنها تظهر لك رمزاً لتجربة ، ولكل تلك الكمية اللامتناهية من التجارب التي كانت تبدو في قمة ذلك الزمن . أنت تجد فيها الآن بتذكرك لها رمزاً للتجارب الممكنة جميعها . أنت تتنشق جو « القمة » وهذا الشيء تفعله بسهولة نظراً لامكانية التفهم . والاستعداد لدى تلك الذكرى الصغيرة . « رمز » تعني هذا : جعل الأشياء موضوعية أمام الذات ، كما المنظر المتسع في طرف منظار مقرب ، والتصرف بها ، كما بشيء مملوك بكامله ومعد خفية للاشارة إلى إمكانيات لا نهاية لها .

ذاك يصح بالنسبة إلى الابداعات الخيالية القديمة التي هي بسيطة متواضعة ، وأقل تعقيداً بما لا نهاية من الحياة التي تعيشها الآن ، والتي رغم ذلك ، تملأنا إعجاباً كتجربة طبق الأصل عن القمة .

(المصدر ذاته ص :٢٨٨ - ٢٨٩)

إلى « فرناندا بيفانو»، «تورينو»

[« سانتو ستيفانوبلياو »
٢٧ حزيران سنة ١٩٤٢]

عزيزتي «فرناندا» :

أوجه اليك فوراً تحياتي وتمنياتي ، لأني بعد ذلك أخشى أن لا أفعل . لي حديث عن نفسي ، يحدث لي إذن ما يلي : ألتهـب حبـاً للأشياء الفلاحية اليك كيف .

وجودي أمام تلالي ، في وسطها ، يحركني دائماً - ولكن هذه المرة أكثر من كل وقت آخر إلى العمق ، فكري بهذا فقط من أن صوراً بدائية بقدر ما نقول : الشجرة ، البيت ، الكرمة ، الطريق ، المساء ، الخبز ، الثمار ، الخ ... قد انفتحت لي في هذه الأمكنة ، وأحسـن في المكان حيث أنا موجود ، في أحد ملتقيات الطـرق حيث يقـوم بيت كبير ، بوابته حمراء تئز ، وسطحه يقع عليه الغبار الأخضر المستخدم في كبرتة العريشة والذي بسببه تبقى ركبتاي دائماً متسختين ، ولهذا السبب

فان رؤية تلك الأشجار، والبيوت ، والكروم ، والطرقات ، من جديد تبعث في نفسي الشعور بطاقة غير عادية . للتخيل كما لو أن الصورة المطلقة للأشياء تولد في الآن ، كما عندما كنت لا أزال طفلا ، ولكن طفلا يحمل من اكتشافاته ثروة من الأصداء والحالات ، والكلمات ، والحوادث، وبكلمة ، الخيال الذي هو غير متوازن حقاً ، لم أعش عبثاً عشرين عاماً زيادة ، وهذا ما يجب أن يحمل اليك العزاء أنت أيضاً ، أنت التي تذرفين الدموع فوق أماكن طفولتك«هناك ولد خيالك ، وهناك يمكن أن يولد من جديد في كل مرة تعودين اليها - واقعياً أو فكرياً - والسنوات الوسيطة تشكل وجبة جيدة في تلك الطبقة من البرش المتراكم على سطح الطعام المطبوخ .

لتلك الحالة من العذرية السحرية التي أتمتع بها ، تأثير يجعلني أتألم ، لأني أعرف أن مهنتي تهدف إلى تحويل كل شيء إلى «شعر» مما هو ليس هيناً ، وحتى أني أقول ، إن فكرتي الأولى كانت أن كل ما كتبته إلى هذا اليوم كان أشياء تافهة مخططة تبعاً لتصاميم غريبة ليس لها إطلاقاً طعم الشجرة ، والبيت والكرمة والطريق الخ ، كما أعرفها . وعندما غامرت على الطريق بقفزة في الفراغ أدركت تماماً أن كثيراً من الكلمات الأخرى ، والأشياء الأخرى ، والتخيلات الأخرى ضرورية . وبالاجمال يجب أن يكون هنالك أحجية،غرابة،أعجوبة يلزمنا بالضرورة غرائب من الخيال ، كونية ، لكي تعبر تعبيراً عميقاً وبطريقة

لا تنسى عن تلك التجربة التي هي مكاني في العالم ، كنت أعتقد أن وصف قصص عن الفلاحين (حتى لو كانت من التحليل النفسي ، ومتخيلة) لا يكفي أيضاً . أما وصف المناظر فهو من قبيل الغباوة ، يجب أن نحيا المناظر - والأفضل قول الأماكن ، أعني الشجرة والبيت ، والكرمة ، والطريق ، والمسيل الخ ... كما يحيا الأشخاص والفلاحون ، وبتعبير آخر يجب أن تكون عجائبية ، التلة الكبيرة - الحلمة يجب أن تكون جسم الربة ، التي في ليلة القديس يوحنا ، يمكن أن تضاء لها نيران الجذور والاحتفال بعبادتها ، خط القمة اللطيف الهارب نحو قفزة في الفراغ ، سيكون الطريق الذي يتبعه بطل المدينة (هرقل أو أدونيس) وعندما يكمل نشر أعماله الطيّبة يرحل إلى مهمة غير معروفة . الحقل العاري والمرتجف في قمة التلة العليا . المنعزلة ، فيما وراء الأشجار والبيوت نوع من المذبح حيث العاريات ينزلن وينصرفن إلى مضاجعاتهن مع أذكى المخلوقات الغانية وهكذا دواليك . الأمر بالتأكيد لا يتناول إعادة إحياء تكوين «اليونان» وإنما اتباع عالمهم الخيالي . « من النافل القول ان ذاك مستحيل ، بسبب عصور «النور» حيث نعيش - ولهذا السبب تصطك أسناني ، وأقضم أظافري» غير أني فهمت الأشياء الفلاحية .

هذه القصيدة ليست جميلة لأنها تصف حياة الحقول - بطريقة محسوسة جداً كما يقول - أراهن بمائة ضد واحد - أكثر من أستاذ بل

لأنها تبث في البرية حقائق غريبة خفية ، تتجاوز إلى ما وراء المظهر البسيط ، وتبين حتى في حركة دراسة الوقت أو سن المنجل - الوجود المخفي لاله قام بتلك الحركة أو علمها للبشر .
إلى اللقاء

«باذيز»
(رسائل : ص ٣٠٧ - ٣٠٨)
(غاليمار) .

دعوة

أذكر أزهار الشقائق الحمراء جميعها ، تلك التي كنا نراها من النافذة في البرية ، ومن الأكيد أنها لم تكن حلماً من أحلامي ، الانسان لا يحلم بألوان على ذلك القدر من الحيوية ، ثم اني لاحظت دائماً أنه لا يتذكر التفاصيل النافلة في حلمه . غير أن تلك الأزاهير لم تكن تفيد شيئاً ، وتنبت من جديد فوق التلة ، في إطار النافذة كأنها شيء حقيقي .

حتى لا أذكر أني كنت أفكر بما يلي : « لو أن كل هذا حلم ، فسيظهر في وسط الشقائق أحد ما ، وسيحدث شيء ما ، لأن لكل شيء في الأحلام معنى » . وعلى العكس عندما كنت من وقت إلى آخر أنجح

في القاء نظرة من النافذة كنت أدرك أن لا شيء كان يستطيع أن يحصل ، وكنت أجد بالتدقيق في الأعشاب وفي الأشياء، إحساساً لا يتزعزع من الثقة ، وهذا بالذات ما كان يجعلني أبتسم .

ذلك الاحساس بالثقة كان بالنسبة لي عادياً جداً ، ويعود إلي في كل مرة أوجه فيها من مكان منعزل نظرة إلى السماء أو الأشجار والهواء ، كما لو أن الشك قد ساورني لبعض الوقت في وجود الأشياء ، وتلك النظرة كانت تعيد إلي الثقة . إنها هواية على الأرجح تافهة ، كما هي عادة البحث عن الأماكن المقفلة للتمتع بلحظة التحرر حين أضع أنفي خارجاً . ومن هنا يتأتى أني أحب الجلوس في الزوايا الظليلة، تحت النوافذ . غير أني لست معتاداً السكر ، وأقل أيضاً النوم على المائدة ، وعلى كل حال ، في تلك الحقبة ، فإن عاداتي كلها قد كنست ، وكنت أعود فأجد نفسي في بعض الأحيان ، وفي قلب الليل في بعض شوارع الضاحية ، وكنت لا أزال أمشي وقد قررت انتظار الفجر واقفاً . كنت أذهب متذرعاً بشتى التحججات مفضلا الأماكن البعيدة ، كانت هنالك بعض ساعات النهار ، كنت أتذوقها منفعلا ، في هذه الزاوية أو تلك من زوايا الشارع . واليوم لدى التفكير من جديد في ذلك ، أجد من الغريب أن مثل ذلك التأثر الذي يريد أن يعني بالاجمال أني لا أعرف أن أعيش أبداً وحدي تماماً ، قد بقي في فكري كحاجة إلى الوحدة ، كاكتفاء، كنوع من القرف من الوجود وحده الذي كنت أبحث

عنه حينئذ . ولكن الأمور تجري هكذا ، كما يقال . بكلمة كنت مغرماً وكنت أتمتع بقدر ما أستطيع بحبي ، كنت أخرج ليلاً من ذلك المنزل ، أو في الصباح متأخراً ، أو في وسط بعد الظهر ، وفي الساعات الأبعد عن المعقول ، فرحاً ومنشرحاً ، وكنت أذهب إلى أبعد ما تستطيع قدماي أن تحملاني ، متنقلا في مختلف أنواع الشوارع،أحس بالقلق من اللقاء المقبل . وفي بعض الأحيان مترنحاً ، وفي البعض الآخر مستعداً ، ومحباً للاستطلاع ، كنت أنام في جميع الساعات وعندما أستيقظ ، كان يخيل لي أنه الصباح ، إلى درجة أن النهار لم يكن بالنسبة لي سوى صباح طويل ، المقاهي والفنادق الصغيرة كانت كمراحل لرحلة لم تكن تنتهي أبداً .

يوم الشقائق ، كنت جالساً أمام منضدة كبيرة تحت النافذة ، مستنداً إلى مرفقي ، وكنت أعرف أن البرية موجودة في الخارج ، ولكن على سبيل التكاسل ، لم أكن أنظر ، كان لا يزال في عيني ترنح الشمس الساطعة الذي أصبت به ، وطنين الذباب والعمل يملأ الظل . لم يكن يسمع شيء سواه لأن الغرفة كانت مقفرة وكل الفندق الصغير يبدو مقفراً على علمي ، ولم أكلف نفسي عناء الانزعاج لطلب شيء ما . ربما استفدت من فرصة النسيان الذي تركني فيه الجميع ، ولست أدري كيف ، فانتقلت من المدخل إلى هذه الغرفة المنعزلة ، لو أن هناك مدخلا .

أذكر أني أصخت السمع ، آملا أن أسمع في البعيد طقطقة قطار ، غير أن غياب تلك الضجة هو الذي منحني فجأة شعوراً خفيفاً بالقلق والشك - هو الأول - وكوني لم أكن أسمع شيئاً يعود إلى أنه يجب أن لا يحصل ذلك الشيء وإلى أن شيئاً يمكن أن يكون بدأ ، وسينتهي، الله وحده يعرف كيف .

(« ليلة عيد » ص ٢٩١ - ٢٩٢ »
«غالّيار»)

حقل الذرة

يوم أن توقفت أمام حقل ذرة ، حيث كنت أسمع حفيف الجذوع الطويلة الجافة ، المتمايلة في الهواء ، تذكرت شيئاً ما كنت قد نسيته منذ وقت طويل ، وراء الحقل ، تقوم أرض صاعدة فوقها السماء خالية ، فقلت في نفسي : « هنا مكان يجب أن أرجع إليه » ، ثم هربت فوراً تقريباً على دراجتي كما لو كان علي أن أحمل الخبر إلى أحدهم بعيداً . البعيد إنما كنت أنا ، البعيد عن حقول الذرة جميعها وعن السموات الخالية ، في ذلك اليوم كان هناك حقل ، ولكن كان يمكن أن يكون صخرة تعترض الطريق ، أو شجرة منعزلة على منعطف تلة ، أو كرمة على حافة منحدر وعر . بعض المناقشات البعيدة تتخثر وتتحول واقعياً مع مرور الزمن إلى أشكال طبيعية .

وتلك الأشكال،أنا لا أختارها ، بل هي نفسها التي تعرف أن تنطلق وأن توجد على طريقي في الوقت المناسب وعندما أفكر فيها بأقل ما يكون . لا أحد،على ما أعرف،يملك حصافة كحصافتها . ذاك ما يقوله لي حقل الذرة ، في أثناء البرهات القصيرة التي كنت أجرؤ على تأمله فيها ، ذاك ما يقوله من جعلني أنتظره، ولولاه لا يستطاع القيام بأي شيء .«ها أنذا » قال ببساطة من جعلني أنتظر ، ولكن أحداً لا يكف عن رمقه بنظرات الحقد ، كما لو أنه رب عمل . بالعكس ألقيت نظرة سريعة نحو السماء بين الجذوع المنخفضة ، كمن ينظر وراء شيء ما منتظراً تقريباً أن هذا الشيء يكشف عن نفسه بنفسه ، عارفاً تماماً أنه لا يستطيع التيقن من أنه لا يحتوي حركة فظة جداً يمكن أن تجعل كل شيء يتجاوز الضفة بشكل كارثة . ذلك الحقل لا يدين لي بشيء أتمكن معه من القيام بأي شيء سوى الصمت وتركه يتسرب إلى داخلي . والحقل والجذور اليابسة ، تخشخش ، وتتجمد في قلبي . فيما بيننا ، لا حاجة إلى الكلمات ، فالكلمات قد قيلت منذ سنوات مضت .

متى ، في حقيقة الأمر ؟ لا أدري . كما لا أدري إطلاقاً ماذا يمكن أن يقوله حقل ذرة وولد أحدهما للآخر . ولكن من الأكيد أني في ذات يوم توقفت - كما لو أن الوقت يتوقف معي - أمام حقل مشابه ، وكذلك فعلت في الغد ، وفي اليوم التالى أيضاً ، في أثناء فصل كامل . وفي أثناء حياة كاملة . وكان ذلك حدوداً، أفقاً عائلياً، من خلاله كانت التلال

منخفضة لفرط ما هي بعيدة ، تبدو كمنعطفات من نافذة ، في كل مرة تجرأت أن أسير خطوة داخل الغابة الصفراء ، كان الحقل يستقبلني بصوته الحاد المليء بالشمس .وكانت أجوبتي عبارة عن حركات حذرة ، وفي بعض الأحيان نزقة كنت بواسطتها أبعد الأوراق القاطعة ، وأنحني فوق نباتات اللبلاب ، وإلى ما وراء الجذوع المرتفعة ، وكنت أغطس نظري في فراغ السماء . كان في تلك الطقطقة ،صمت قاتل ، صمت مكان مغلق ومقفر ، يفتح في السماء البعيدة الوعد بحياة مجهولة ، غير سالكة مثل التلال .

كم توقف الزمن حينئذ ، أعرف لأني حتى اليوم أيضاً وأمام الحقل أجده من جديد لم يمس ، إنه حفيف جامد لا يتحرك ، أفهم أن أمامي بقيناً ، من أني لامست،نوعاً قعر بحيرة كانت تنتظرني ، وهي متماثلة تماثلا أبدياً ، أما الفرق الوحيد ، فهو أني في ذلك الوقت تجرأت على القيام بحركات نزقة ، كنت أنفذ إلى الحقل مطلقاً صرخة إلى التلال الحميمة التي كنت أتخيلها تنتظرني . عندئذ كنت غلاماً ، وكل شيء من ذلك الغلام قد مات ، عدا تلك الصرخة .

فصل ذلك الحقل ، هو الخريف،عندما كل شيء ينهض في الحقول وراء صفوف الذرة . تسمع أصوات ، وتجمع الغلال ، وفي الليل تشتعل النيران ، جمود الحقل يحتوي أيضاً على تلك الأشياء ولكن كما لو على مسافة ما ، كما الوعود المنتظرة فيما بين الغصون . الأوراق وهي تجف

تفتح قطاعات أوسع فأوسع من السماء وتكشف أكثر عرياً ، التلال البعيدة ، يجري التفكير أيضاً بما يقع وراء ، وبالحضور الليلي لدى طرف الغابة . وفي بعض الأحيان ترتفع في الذكرى خشخشة الأوراق الصفراء وتعكر كما تفعل طقطقة وقع قدم مجهولة ، ومخيفة ، كصوت تصادم الأجساد في أثناء المصارعة . ومن بعد ، ومع التراجع،فان النيران الليلية فوق التلال ، والمساء الذي يهبط فوق الجذوع الغامضة في الحقل،ليست سوى شيء واحد ، وللطمأنينة لا يوجد سوى فكرة أن الذي رمى بنفسه على الأرض مختبئاً ، هو الغلام ، وأن على النجوم تبدو متدلية السنابل التي سوف يأتي الفلاحون في الغد لقطافها . وغداً ، الغلام لن يكون هناك .

تلك الأشياء تحصل في كل مرة كنت أتوقف فيها أمام الحقل الذي ينتظرني ، كان الأمر يبدو كأني كنت أتحدث معه ، رغم أن المحادثة قد حصلت منذ سنوات طويلة مضت ، وحتى أن الكلمات قد ضاعت . تكفيني تلك النظرة السريعة التي سبق أن تحدثت عنها لكي تمتلئ السماء بالتلال والاشارات .

(« ليلة عيد » ص : ٣٨٩ - ٣٩١ »
«شالتيار»)

« إذا أردت أن تعرف من أنا ، من الآن فصاعداً ، إقرأ « الحيوان المتوحش » في « المحادثات مع «لوكو» : وكما أفعل دائما ، فقد توقعت كل شيء منذ خمس سنوات »

(« رسالة إلى دافيد لاجولو » ٢٥ آب ١٩٥٠)

« انديميون (Endymion) وغريب يتحدثان »

انديميون : أصغ ، أيها المار ، كما لو أني أستطيع قول هذا لغريب : لا تخش من عينيّ اللتين هما عينا مجنون . الأسمال التي تغطي رجليك بشعة ، مثل عينيّ ، لكنك تبدو رجلا صلباً ، يستطيع عندما يريد أن يتوقف في البلد الذي اختار . وهناك يجد ملجأ ، وعملا ، وبيتاً ، ولكني مقتنع بأنك إذا كنت تسير الآن ، فذلك يعود إلى أنك لا تملك شيئاً اللهم إلاّ مصيرك . أنت تجوب الطرقات في ساعة الفجر ، إذن يحلو لك أن تستيقظ بين الأشياء عندما تكاد

تنبثق من الظلمة وعندما لم يكن أحد قد مسها . هل ترى هذا الجبل ؟ إنه «اللاتموس» (Latmos) لقد تسلقته مرات كثيرة في الليل ، عندما كان الظلام أكثر سواداً . وانتظرت أن أرى النور يطلع من خلال وزالاته . ومع ذلك ، يخيل لي اني لم أمسه إطلاقاً .

الغريب : من يستطيع القول انه لم يمس ما يمر من قربه ؟

انديميون : أفكر أحياناً ، أننا مثل الريح التي تعدو بشكل غير ملموس ! أو مثل أحلام النائم ، هل تحب أيها الغريب أن تنام نهاراً ؟

الغريب : أنام في أي وقت ، عندما يتملكني النعاس ، استغرق غافياً .

انديميون : - وهل يحدث لك في النوم - أنت الذي تجوب الطرقات - أن تصغي إلى صوت الريح والعصافير ، والبحيرات ، والطنين وخرير المياه ؟ هل يخيل لك في أثناء النوم أنك لست وحدك أبداً ؟

الغريب : أيها الصديق ، لا أعرف ، لقد عشت دائماً وحدي .

انديميون : أيها الغريب ، لا أجد إطلاقاً سلام النوم ، أعتقد أني

نمت بشكل دائـم . ورغـم ذلك أعـرف أن ذلك ليس صحيحاً .

الغريب : يخيل لي أنك رجل جيد وقوي .

انديميون : إني كذلك أيها الغريب ، إني كذلك ، وأعـرف غفـوة الخمرة والنعاس الثقيل الذي يغفو إلى جانب امرأة ، غير أن ذلك كله لا يمنحني السرور . من فوق سريري الآن أصيخ السمع وألبث مستعداً للوثوب . لي هاتان العينان ، عينا من يحدق في الظلمات ، يخيل لي أني عشت هكذا دائماً .

الغريب : هل انتقدت أحداً ؟

انديميون : أحداً ؟ أيها الغريب ، أنت تعتقد أننا فانون .

الغريب : هل مات لك أحد ؟

انديميون : كلا ! ، لا أحد ، أيها الغـريب ، عندمـا أتسلـق اللاتموس لن أكون فانياً أبداً . لا تنظر إلى عينيّ . إنهما لا تعدان ، أعرف أني لا أحلم ، بما أني غير مستطيع النوم ، أنت ترى تلك البقع التي تخطها الوزالات على الصخرة ؟ تلك الليلة كنت هناك وقد انتظرتها .

الغريب : من كانت تلك التي يجب أن تأتي ؟

اندييون : لا نذكر اسمها . لا نذكره ، ليس لها اسم ، أو أن لها كثيراً من الأسماء لست أدري ، أيها الرفيق ، أيها الرجل ، هل تعرف الرعب الذي تحدثه الغابة ، عندما تنفتح فيها فرجة ليلية ؟ كلا .أحياناً ، أنت تفكر من جديد ، في الليل ، بالفرجة التي رأيتها واجتزتها في أثناء النهار . وهناك يوجد زهرة . عنبة تعرفها وتتايل مع الريح ، وتلك العنبة ، تلك الزهرة شيء بري ، فانٍ بين الأشياء البرية جميعها . كيف نعتبر ذلك ؟ زهرة هي مثل الحيوان المتوحش.أيها الرفيق ، هل نظرت مرة بهلع وشهوة طبيعة ذئبة أو انثى الايل أو حية .

الغريب : تريد القول ، العضو التناسلي لحيوان حي ؟

اندييون : ذاك غير مهم ، هل عرفت مرة ، أحداً هو ألف شيء في واحد ، أحداً حملها معه - هل عرفت مرة أن كل حركة من حركاته ، وأن كل فكرة تكونها عنه ، تذكرك بأشياء لا عداد لها من الأرض ومن سمائك . وبكلمات وبذكريات وبأيام مضت لن تعرفها أبداً بعد ، بأيام مقبلة ، بيقين ، وبأرض أخرى وبسماء أخرى لن يتاح لك امتلاكها ؟

الغريب : سمعتهم يتحدثون عن هذا .

اندميون : آه أيها الغريب ! ولو كان ذلك الشخص الحيوان المفترس ، الشيء الوحشي ، الطبيعة التي لا يمكن مسها ، من لا اسم له ؟

الغريب : انك تحدث عن أشياء هائلة .

اندميون : ولكن لا يهم. أنت تصغي إلي ، كما هو الواقع. وإذا كنت تجوب الطرقات فأنت تعرف أن الأرض مليئة كلها بالقدسي ، وبالمخيف . وإذا كنت أحدثك فلأننا مثل المسافرين والمجهولين على شيء من القدسية .

الغريب : من الأكيد أني رأيت كثيراً من الأشياء ، وبعضها كان مخيفاً . ولكن الأمر لا يستحق عناء الذهاب إلى أبعد ، لو كان ذلك يجديك نفعاً ، لقلت لك ان الفانين يعرفون طريق برقع المدخنة .

اندميون : إذن أنت تعرفه ، وتستطيع أن تصدقني ، كنت في إحدى الأمسيات نائماً فوق «اللاتموس» - كان ذلك في الليل - وقد تأخرت في التخيل. بينما أنا نائم قاعداً مستنداً إلى جذع شجرة، استيقظت تحت ضوء القمر - في الحلم شعرت بقشعريرة ، عندما فكرت أني هنا في الفرجة . ورأيتها ، رأيتها تحدق إليّ بعينيها المتحنيتين، قليلا عينين

ثابتتين ، شفافتين ، ضخمتـين من الداخـل ، لم أكن أعرفها في ذلك الوقت ، كما لم أعرفها في اليوم التالي ، إنما كنت قد أصبحت شيئاً يخصها،لها ، أخذت في دائرة عينيها ، ودائرة الحيز الذي كانت تشغله ، ودائرة الفرجة والجبل ، حيّتني بابتسامة مغلقة ، فقلت لها : « ايتهـا السيدة ! » . فرفت بجفنها مثل بنت متوحشة قليلا ، كما لو أنها فهمت أني كنت مذهولا ، وأني في داخل ذاتي كنت مرتعباً من مناداتها «سيدة» وقد بقي هذا الارتباك دائماً فيما بيننا .

أيها الغريب ! ذكرت لي اسمي ، واقتربت مني - ثوبها لم يكن يصل إلى ركبتيها - ثم مدت يدها وداعبت شعري ، لامستني كأنها مترددة ، وارتسمت ابتسامة على شفتيها ، ابتسامة غير معقولـة ، فانية ، سقطـت برهـة ساجداً - كنت أفكر بجميع أسمائها - ولكنها أمسكتني كما يمسك الطفل ، ويدها تحت ذقني ، أنا ضخم وقوي كما ترى ، كانت معجبة بنفسهـا ولـم يكن لهـا سوى عينيها - فتاة نحيلة متوحشة - لكنني أصبحت مثـل طفل ، قالت لي : « يجب أن لا تستيقظ أبداً ، عليك أن لا تقوم بأية حركة ، سأعود أيضاً للقائك » وذهبت نحو الفرجة في الغابة .

جبت «اللاتموس» في تلك الليلة حتى الفجر ، تبعت القمر في كل المسيلات ، في الغابات ، فوق القمم . أصخت أذني اللتين كانتا لا تزالان مليئتين ، كما من ماء البحر ، من ذلك الصوت الأجش قليلا ، البارد الأمومي ، كل ضجة ، وكل ظل كانا يوقفانني ، ولم أكن القى من الحيوانات المتوحشة سوى الفرار - وعندما بزغ النور - نور لزج قليلا مغطى - نظرت من فوق إلى السهل ، إلى ذلك الطريق الذي نسير عليه أيها الغريب ، وفهمت أني لن أعيش أبداً بين الناس . كففت عن أن أكون واحداً منهم . كنت أنتظر الليل .

الغريب : أنت تروي أشياء لا تصدق ، يا انديميون . لا تصدق باعتبار أنك دون شك قد عدت إلى الجبل ، وانك تعيش وتمشي دائماً وأن المتوحشة ، وان سيدة تلك الأسماء لم تصنع لك شيئاً حتى الآن .

انديميون : أنا هنا ، أيها الغريب !

الغريب : أردت أن أقول ... ألا تعرف قصة الراعي الذي مزقته الكلاب ، الذي لا يحفظ السر، الرجل الأيل ؟

انديميون : أوه أيها الغريب ، أعرف كل شيء عنها ، لأننا تحدثنا ، وتحدثنا، وأنا أتظاهر بالنوم دائماً في جميع الليالي ، ولم

الامس يدها ، كما لم ألامس اللبوة أو الماء الأزرق في المستنقع ، أو الشيء الذي يخصنا أكثر ، ونحمله في قلبنا ، اصغ ، إنها فيّ - فتاة نحيلة لا تبتسم . بل تنظر إلي وعيناها الشاسعتان ، الشفافتان رأتا أشياء أخر . إنهما لا تزالان تريانها . إنها لهما ، تلك الأشياء . في عينيها يوجد الجنون والحيوان المفترس ، الزئير ، الموت ، الاحتلال القاسي ، أعرف الدم المراق ، اللحم الممزق ، الأرض الملتهمة، الوحدة . بالنسبة إليها الوحشية هي الوحدة ، بالنسبة إليها الوحش المفترس هو الوحدة ، مداعبتها هي المداعبة التي توجه للكلب ، وللشجرة ، ولكنها أيها الغريب كانت تنظر إلي وتنظر ، وهي في ثوبها القصير تبدو فتاة ناحلة ، كما يمكن أن تكون رأيت في بلادك .

الغريب : يا انديميون هلا تكلمت عن حياتك كرجل .

انديميون : أيها الغريب ، أنت تعرف أشياء هائلة ولكنك لا تعرف أن الوحشي والقدسي يمحوان الانسان ؟

الغريب : عندما تتسلق «اللاتموس» لن تبقى فانياً ، أعرف ذلك ، غير أن الفانين يعرفون أن يبقوا وحيدين ، أنت لا تريد

الوحدة ، أنت تبحث عن الأعضاء التناسلية للحيوانات.
معها تتصنع النوم ، ماذا طلبت منها إذن ؟

اندميون : أن تبتسم مرة أخرى ، وهذه المرة أن أكون دماً يراق فيما بعد ، أن أكون لحماً في فم كلبها .

الغريب : وماذا قالت لك ؟

اندميون : لم تقل شيئاً ، نظرت إلي ، تركتني وحدي عند الفجر وأنا أبحث بين الوزال . ضوء النهار يجرح عيني « يجب أن لا تستيقظ أبداً » قالت لي .

الغريب : تباً لك أيها الفاني ! يوم تستيقظ حقيقة ستفهم جيداً لماذا منعت عنك ابتسامتها .

اندميون : لقد سبق لي أن عرفت أيها الغريب ، أنت الذي تتحدث مثل إله .

الغريب : المرعب والقدسي يجوبان في الأرض ونحن نجوب الطرقات لقد قلت ذلك بنفسك .

اندميون : أوه-أيها الاله المسافر ، حلاوتها تشبه الفجر ، إنها الأرض والسماء المباح بهما ، وهي قدسية ولكن بالنسبة لآخرين بالنسبة للأشياء والحيوانات، لها ، هي المتوحشة ضحكة

مختصرة ، وصية تمحو الوجود وما من أحد لامس ركبتها أبداً .

الغريب : انديميون ! اعتزل في داخل قلبك الفاني . لا إله،لا رجل. يمسها ، صوتها الذي هو أجش وأمومي ، هو كل ما. تستطيع أن تمنحك المتوحشة .

انديميون : ورغم ذلك ..

الغريب : ورغم ذلك ؟

انديميون : طالما العالم موجود لن يكون لي لا سلام ولا نوم .

الغريب : لكل الوسن الذي يعود إلى حصته ، ونومك غير متناه من الأصوات ، والصرخات ، والأرض والسماء والأيام ، ثمة بشجاعة أنتم الآخرون ليس لديكم أفضل ، الوحدة الوحشية تخصك،أحبها كما تحبها هي . والآن انديميون ، سأتركك . ستراها هذه الليلة .

انديميون : أيها الاله المسافر . أنا مدين لك بجميل .

الغريب : وداعاً . عليك ألا تستيقظ أبداً ، تذكر .

(محادثات مع «لوكو» ص . ٧٣ - ٨٢ »
(« غاليمار»)

نزعة الكاتب :　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　٢٧ حزيران

... كتابة شيء يتركك كبندقية انطلقت في الحال ولا تزال مفككة ومحرقة ، مفرغة من جميعك ، حيث أنك لم تفرغها من كل ما تعرف عن ذاتك فحسب ، بل أيضاً مما تشك به ، وتفترضه ، ومن الانتفاضات والأشباح ، واللاوعي - وعملك هذا الذي بذلت ثمناً له تعباً طويلا ، وتوتراً طويلا ، مع حذر مصنوع من الأيام ، والهزات ، والاكتشافات المباغتة ، والانكسارات ، مثبتاً الحياة كلها على هذه النقطة - وإدراك أن كل ذلك كلا شيء إذا كانت غداً اشارة انسانية . أو كلمة ، أو حضور لا يستقبله ، ولا يدفئه - الموت من البرد - والكلام في الصحراء - والبقاء وحيداً ليلا ونهاراً كالميت .

(« مهنة الحياة» ص : ٢٦١ - ٢٦٢ »)

(« غاليّار»)

كان في بعض الأحيان حزيناً جداً ، ولكننا ظننا لوقت طويل أنه سيشفى من هذه الكآبة ، عندما يقرر أن يصبح كهلا . إذ كان يخيل لنا أن كآبته هي كآبة ولد ، الكآبة الشهوانية والحالمة لولد ، لم يعش الحياة بعد ، ويتحرك في عالم وعر ووحيد من الأحلام . وكان في بعض الأحيان يأتي في المساء لرؤيتنا ، فكان يجلس شاحباً ووشاحه حول

عنقه ، مداعباً شعره ، أو داعكاً قطعة من ورق الكتابة ، لم يكن ينبس ببنت شفة طول السهرة ، لم يكن يجيب عن أي من أسئلتنا ، وأخيراً وبقفزة واحدة ، كان يتناول معطفه ويذهب .

كان له طريقته الجشعة والمتحفظة في تقديم يده للمصافحة ، إذ أن بعض الأصابع فقط كانت تمتد ثم لا تلبث أن تنقبض ، كما كان له طريقته الحذرة والمقترة في تناول تبغه من كيسه وحشو غليونه منه . كما كانت له طريقة فظة جداً ومفاجئة جداً إلى درجة أننا كنا نبقى مذهولين منها . كان يقول انه ضنين على المال الذي يملكه وانـه يتألـم لدى الانفصال عنه . ولكنه ما إن ينفصل عنه حتى لا يعود يبالي به .

كان وجهه في المدة الأخيرة أجوف مجعداً ، تجتاحه أفـكاره المؤلمة ، ولكنه حتى النهاية حافظ في مشيته على فتنة شاب مراهق ، وفي السنوات الأخيرة أصبح كاتباً شهيراً، غير أن ذلك لم يجعله يبدل شيئاً من عاداته الشرسـة ، ولا من تواضعه في تصرفاتـه ، ولا الخشـوع المتمسك بالوجدان حتى الهوس ، ولا من اجتهاده اليومي ، وعندما كنا نسأله عما إذا كان مسروراً لاكتسابه الشهرة كان يجيب بضحكة متعجرفة بأنه كان يتوقع ذلك دائماً ، فبعض الأحيان كانت له ضحكة ساخرة ومتكبرة ، صبيانية وعدوانية، تلمع مثل البرق ثم تختفي ، ولكن الواقع أنه كان يتوقع دائماً ما وصل إليه ، كان يعني أن بلوغ الهدف لم يكن يحمل

له غبطة،كان عاجزاً عن التمتع بالأشياء وعن حبها ، عندما يمتلكها ، كان يقول ، إنه من الآن وصاعداً سيحذق مهنته حذقاً عميقاً ، إلى درجة أنها لا تحمل اليه أي سر . وعدم تقديمها له الأسرار لم يكن ليثير اهتمامه .

وكان يقول لنا ، نحن أنفسنا أصدقاءه ، أن ليس لدينا أية أسرار بالنسبة له ، واننا نضجره ضجراً هائلا . أما نحن المتأثرون جداً من كوننا نضجره فلم نكن نتوصل إلى أن نقول له ، إننا كنا نرى جيداً أين يكمن خطؤه ، الذي كان ناتجاً من أنه لم يكن يريد أن يخضع فيحب المسيرة اليومية للوجود ، التي تمضي بشكل متناسق ، وبدون أية أعجوبة ظاهرة . كان عليه أن يستولي على الواقع اليومي ، ولكن هذا الواقع كان بالنسبة إليه محظراً ولا يمكن أن يأخذه . هو الذي كان يرغب فيه ويخشاه في وقت معاً ، بنوع أنه لم يكن يستطيع إلا النظر إليه ، كما إلى بعد لا حدود له .

مات خلال الصيف ، ومدينتنا خلال الصيف مقفرة وتبدو كبيرة جداً ، صافية ورنانة كساحة ، السماء فيها صافية ولكن غير مضيئة ، ذات لون شاحب لزج ، والنهر يسيل مسطحاً كطريق ، دون أن ينشر لا رطوبة ولا برودة . وغيوم من الغبار ترتفع من الوديان ، آتية من النهر ، وعربات ضخمة تمر محملة بالرمل ، وبلاط الباحة مملوء بالحصى الذي

يشوي من خلال طبقة الاسفلت . وفي الخارج ، تحت المظلات الكبيرة ذات الخمائل ، ترى موائد المقاهي مهجورة ومحرقة .

(« ناتاليا جينزبورغ »
المزايا الصغيرة ص ٣٢ - ٣٥ ؛ ٣٧ - ٣٩
مطبوعات فلاماريون)

... وسيكون له عيناك

الموت سيأتي ، وسيكون له عيناك
ذلك الموت الذي هو رفيقنا
من الصباح حتى المساء ، بدون نوم
أصم ، كندم قديم
أو كنقيصة شاذة . عيناك
ستكونان كلمة لا معنى لها ،
صرخة مكبوتة، صمتاً .
هكذا تراها في الصباح
عندما على نفسك وحدك تميل
أمام المرآة . أيها الأمل العزيز ،
في ذلك اليوم ، سنعرف نحن أيضاً

انك الحياة ، وانك العدم .
للموت نظرة إلى الجميع .
الموت سيأتي وسيكون له عيناك .
سيكون ذلك كالكف عن نقيضه ،
كرؤية وجه ميت
ينبعث من جديد أمام المرآة ،
كمن يصغي إلى الشفاه المغلقة ،
سننحدر إلى الهوة بكما .

(٢٢ آذار سنة ١٩٥٠
(القصائد - ٢ - ص ٤٩
غاليمار)

بعض الكتب المختارة عن «پاڤيز»

دراسات فرنسية :

١ - دومينيك فرنانديز (Dominique Fernandez)

(أ) : الرواية الايطالية وأزمة الضمير المعاصر . غراسيت ١٩٥٨

(ب) : فشل «پاڤيز» غراسيت ١٩٦٧

٢ - فيليب رينارد (Philippe Renard) «پاڤيز» سجن الخيالي لاروس ١٩٧٢

شهادات

١ - « دافيد لاجولو » النقيصة الشاذة - مترجمة إلى الفرنسية بقلم فرنانديز ، منشورات «غالّيمار» ١٩٦٣ .

٢ - ناتاليا جينزبورغ. الفضائل الصغيرة صفحات : ٢٥ - ٣٣ ، في صورة صديق ، فلاماريون .

ناتاليا جينزبورغ : كلمات القبيلة .

مؤلفات پاڤيز باللغة الفرنسية المنشورة والموجودة في المكاتب

١ - العمل بتعب .

٢ - القصائد الجزء الثاني : سيأتي الموت وسيكون له عيناك ، مجموعة من لغتين ترجمها وكتب مقدمتها «نينو فرانك» من منشورات غاليار .

٣ - قبل أن يصيح الديك (تضم ، من عندنا ، السجن ، البيت فوق التلال) ترجمة نينو فرانك. غاليار ١٩٥٣ .

٤ - محادثات مع «لوكو» ترجمة اندره كوروا (André Coeuroy) غاليار ١٩٦٤

٥ - القمر والنيران : (وهو يضم : القمر والنيران ، الشاطئ) ترجمة ميشال أرنولد غاليار ١٩٦٥

٦ - الرفيق ترجمة « بيار لاروش » غاليار ١٩٦٨

٧ - تحية يا مازينو ترجمة نينو فرانك غاليار ١٩٧٣

٨ - ليلة عيد ، أخبار وأقاصيص . مع النار الكبيرة ترجمة بيار لاروش غاليار ١٩٧٢ .

٩ - مهنة الحياة ، يوميات حميمة (١٩٣٥ - ١٩٥٠) ترجمة ميشال أرنو غاليار ١٩٥٨ .

١٠ - رسائل (١٩٢٤ - ١٩٥٠) مترجمة ومقدمة بقلم ج موجيه (Moget) غاليار ١٩٧١ عبارة عن مختارات .

لائحة تاريخية

١ - پاڤيز

١٩٠٨	٩ أيلول مولد سيزار پاڤيز في سانتو ستيفانو بلباو (بيامونت)
١٩١٤	وفاة والد پاڤيز ، بمرض السرطان الدماغي .
١٩١٤ - ١٩١٨	الصفوف الابتدائية في مؤسسة «ترومبيتا» الخاصة .
١٩١٨ - ١٩٢١	الرياضة الابتدائية في المؤسسة الاجتماعية اليسوعية .
١٩٢١ - ١٩٢٣	الرياضة العليا
١٩٢٣ - ١٩٢٦	الدروس الثانوية في الليتشييو دازيغليو (الاستاذ أوغوستو مونتي المعادي للفاشستية)
١٩٢٦	الدخول إلى الجامعة مع ليونيه جينزبورغ ، وجوليو اينودي الخ ..
١٩٢٩	پاڤيز يلتقي «تينا» المرأة « ذات الصوت الأجش »
١٩٣٩	دبلوم عن والت ويتمن . وفاة والدة پاڤيز. أول مقال يكتبه في «الكولتورا» عن الأدب الأميركي .
١٩٣٢	پاڤيز ينشر ترجمات «موبي ديك» لميلفيل ، والضحكة السوداء لشيروود اندرسون .

١٩٣٥	المراقبة.من ٥ آب ١٩٣٥ إلى ١٥ آذار سنة ١٩٣٦ ، وضعه في الاقامة المراقبة في « برانكا ليونه »
١٩٣٦	اصدار : « العمل بتعبٍ » لم يلاق نجاحاً . زواج المرأة ذات الصوت الأجش .
١٩٣٧	ترجمة : فئران ورجال لستينبيك
١٩٣٨	اينودي يستخدم پاڤيز وقتاً كاملا في داره للنشر .
١٩٤١	الرواية الأولى : من عندنا ، تثير الانتباه .
١٩٤٢	نشر «الشاطئ»
١٩٤٣	الاقامة في روما . يهتم بفرع منشورات اينودي . أيلول إلى ١٩٤٣ نيسان . الاقامة عند شقيقته في « سييرا لونغا » في «مونفيرات » لم ينضم إلى المقاومة .
١٩٤٥	أزمة دينية ، وضع نظرية:الأعجوبة .
١٩٤٥	عودته إلى تورينو ، انضمامه إلى الحزب الشيوعي ، نشر : عطلة آب .
١٩٤٦	پاڤيز يكتب رواية : النار الكبرى مع بيانكا غاروفي .
١٩٤٧	«الرفيق» - محادثات مع «لوكو» .
١٩٤٨	« قبل أن يصيح الديك » پاڤيز ينشئ لدى اينودي مجموعته عن «الدروس الدينية ، والاتنولوجية ، والنفسية »
١٩٤٩	الصيف الجميل .

١٩٥٠	پاڤيز يقع في روما في حب كونستانس دويلنغ التي ترحل في نيسان إلى الولايات المتحدة . نشر : القمر والنيران . نال جائزة «ستريغا» .
١٩٥٠	٢٦ آب: الانتحار .

ـ٢ـ أحداث ثقافية

١٩٠٢	مولد كارلو ليڤي .
١٩٠٧	مولد موراڤيا .
١٩٠٨	مولد ڤيتوريني .
١٩٢٦	تأسيس المجلة الأدبية : سولاريا في فلورانسة .
١٩٢٩	نشر : اللامبالون لموراڤيا - الضجة والغضب لفولكنر . وداعاً أيها السلاح لهامينغواي .
١٩٣٠	خط العرض الثاني والأربعون لباسّوس .
١٩٣١	مادونا دي فيلوسوفي «لغادّا» بيكولا بورجيزيا لفيتوريني المزار : لفولكنر .
١٩٤٧	وقائع المحبين الفقراء لبراتوليني .
١٩٤٨	ظهـور فيلـم : الأرض ترتجف لفيسكونتـي ، وسـارق الدراجة لدي سيكا

١٩٤٩	انتونيو الجميل لبرانكاتي . قطع الأشجار لكاسولا .

٣ - أحداث سياسية

١٩٢٢	المسيرة نحو روما . ١٨ كانون الأول : مجزرة أحد عشر معادياً للفاشستية في تورينو .
١٩٢٤	اغتيال متايوتي - تأسيس الاونيتا في ميلانو من قبل غرامشي وتوغلياتي .
١٩٢٥	انشاء النظام الفاشستي .
١٩٢٦	اعتقال غرامشي .
١٩٢٩	انشئت في باريس الحركة المعادية للفاشستية « العدالة والحرية »
١٩٣٢	انشاء الجماعة التورينوية « العدالة والحرية » (ليونة جينزبورغ ، كارلو ليفي ، أوغوستومونتي الخ ..)
١٩٣٤	اعتقال جينزبورغ في قلب الحركة ، والحكم عليه بالسجن سنتين .
١٩٣٥	عملية بوليسية جديدة ، توقيف پاڤيز ، والحكم عليه بالاقامة المراقبة مدة ثلاث سنوات .
١٩٣٧	وفاة غرامشي .

١٩٤٠	دخول ايطاليا الحرب إلى جانب المانيا .
١٩٤٣	سقوط موسوليني .
	الهدنة بين الحلفاء وايطاليا .
	انشاء الأنصار .
١٩٤٤	وفاة ليونه جينزبورغ من التعـذيب في سجـن ريجينـا كويلي في روما .
١٩٤٥	تحرير شمالي ايطاليا .
١٩٤٨	حصار برلين - موت ايدانوف .
١٩٥٠	ابتداء حرب كوريا .

الفهرس

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

في سلسلة اعلام الفكر العالمي

فرانز فانون	كانط	رامبو
راسل	هومر	أوسكار وايلد
ألبير كامو	غوته	شتاينبك
ماركوز	دستويفسكي	برنارد شو
غيفارا	لوركا	غرامشي
هيدغر	لوكاتش	لوثر
ماركس	غوركي	توماس مان
فرويد	فيبر	ادغار آلان بو
نيتشه	روزا لوكسمبورغ	رينان
أنغلز	جويس	سبينوزا
ديكارت	داروين	دوركهايم
هيغل	تورغينيف	فلوبير
سارتر	طاغور	فورييه
أندريه مالرو	مايا كوفسكي	بيرون
كافكا	أندريه جيد	سرفانتس
بوشكين	فوكنر	بيراندللو
برغسون	غوغول	سان سيمون
بيكيت	أورويل	مالارميه
أراغون	بريخت	تروتسكي
هاردي	بودلير	لورانس
ميكيافيللي	أناتول فرانس	

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير

الثمن 

او ما يعادلها